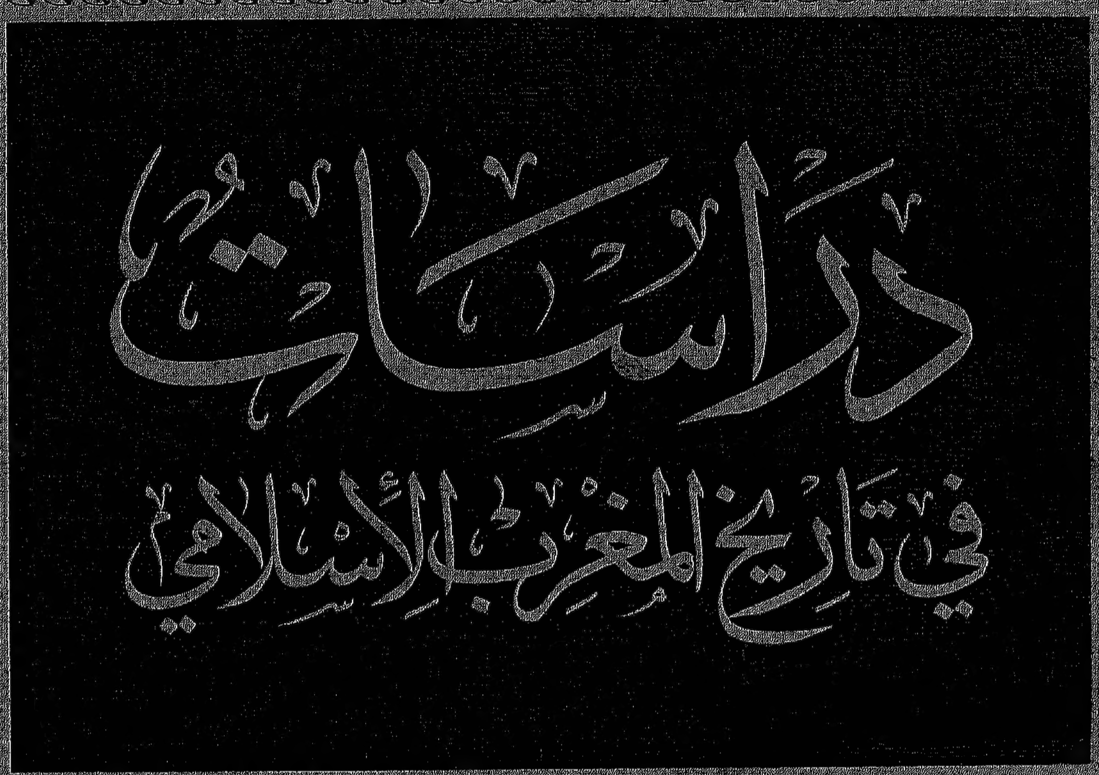


تأليف

عز الدين عمر أحمد موسى

دار الشروق



دراسات
في تاريخ المغرب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقياً داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

دراسات

في تاريخ المغرب الإسلامي

تأليف

عز الدين عمر أحمد موسى

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الصفحة

مقدّمة

تضم هذه الدراسة ثلاثة بحوث تعالج قضايا متعددة باسلوب تاريخي واحد؛ ذلك لأن هذه القضايا وان اختلفت في مظهرها فهي متجانسة في جوهرها، وتثير تساؤلات متشابهة، وقد كتبت البحوث ذاتها في فترات متقاربة، ولهذا تميزت الدراسة هذه بوحدة موضوعها وطريقة معالجته ومنهج بحثه.

وهذه البحوث تعالج جوانب من تاريخ المغرب في الفترة الممتدة من أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي إلى اواسط القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي. وقد شهدت هذه الفترة من تاريخ العرب والاسلام ظروفاً دقيقة حرجة وحوادث عصيبة بالغة الخطورة. فتركت هذه الحوادث أثراً عميقاً في مجرى التاريخ العربي والاسلامي، فيما اسهمت تلك الظروف بنصيب وافر في التمهيد للحوادث حتى تفعل فعلها وتُحدث أثرها.

كان العالم العربي والاسلامي في هذه الفترة يمر بطور انحلال واضمحلال في اوضاعه السياسية ونظمه الاجتماعية واحواله الاقتصادية وشؤونه الفكرية. وقد تجسد هذا كله في التجزئة السياسية، وتوطيد نظام الاقطاع العسكري، وتكريس الاقليمية، وامتداد البداوة على حساب الحاضر، وضعف الاقتصاد: زراعةً وصناعةً وتجارةً، وفقدان الدور القيادي في التجارة العالمية. ومن ثمّ اصبح الفكر منكفئاً على الماضي، مجتراً

لذكراه، لا تثيره اتراح حاضر معاش، ولا يبشر بأفراح مستقبل مرتجى.

فليس بمستغرب، والحالة هذه، ان تمهد هذه الظروف لاحداث داخلية واخرى خارجية فتغذي المسيرة الهابطة والضعف المتجسد. أما الاحداث الداخلية فقد تمثلت في تغلب البداوة - بمفهومها المغربي الخلدوني - على الحاضرة في الحركة المرابطية والعزوة الهلالية في المغرب والزحفة التركية التركمانية في المشرق؛ واما الاحداث الخارجية فقد تجلت في الحملات الصليبية وحركات الاستعادة الاسبانية والبرتغالية والغزوات المغولية.

ونتج عن هذه العوامل كلها محاولات استفاقة وحركات انتفاضة في مشرق العالم العربي والاسلامي تسعى لوقف التدهور الداخلي ولدرء الاخطار الخارجية. وخير ما يمثل ردة الفعل هذه قيام الدولة النُّورية فالايوبية ثم المملوكية في المشرق. وانطلاق الحركات المرابطية والموحدية في المغرب، وتحوّل هذه الحركات إلى دول خَلَفَتها الدولتان المرينية والحفصية في المغرب الاقصى وافريقية.

ان تشابه الظروف والحوادث نتج عنه تماثل في محاولات الاستفاقة وحركات الانتفاضة مشرقاً ومغرباً. وهذه الظاهرة تدعونا إلى التساؤل عن محاولات التنسيق بين المنطقتين لمواجهة الضعف الداخلي والخطر الخارجي، وعن دور التنظيمات والنظم في عملية هذه المواجهة، لا سيما وان الفترة قد تميزت بقيام دولة كثيرة وسقوطها في نسق واحد متتابع. من هنا هدفتُ في هذه الدراسات أولاً: لبحث العلاقات بين الايوبيين والموحدين؛ وثانياً لدراسة الاسطول المغربي خلال الفترة كلها فنعرف ما طرأ على النظم من تبدل وتغير مع تتابع الدول وما هو الدور الذي قام به في درء الخطر الخارجي؛ وثالثاً النظر في انحلال دولة الموحدين وسقوطها لانها خير ما يمثل محاولات الاستفاقة التي تبلورت في حركة ثم دولة قامت على فكرة فحاولت التصدي للخطرين الداخلي والخارجي بإحياء التراث الاسلامي وبعثه في ثوب جديد.

وقد اتبعت طريقة واحدة في معالجة الموضوعات الثلاثة وهي استقراء المصادر دون غيرها، في محاولة للتثبت من الوقائع وفهمها وفق منهج واحد منطلقه الفكري هو ان الفكر هو مفجر الظاهرة التاريخية وباعثها. وعلى هذا فقد جاءت هذه الدراسة مكملة لرصيفتها التي سبقتها، وهي تنظيمات الموحدين ونظم دولتهم في المغرب.

وعلى الرغم من ان هذا المنهج وتلك الطريقة قد اسهما في استجلاء الحقائق من مظانها فقد تبين لي قصورها في شرح العلائق بين الحقائق، اذ الفكر نفسه نتاج بيئة اجتماعية واقتصادية معينة، والتشابه والتماثل في ظروف المشرق والمغرب واحداثهما وردود الفعل فيهما، قد لا يعني الا التشابه والتماثل بينهما في الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية لهذا أَتْبَعْتُ هذه الدراسة بدراسة ثالثة عن النشاط الاقتصادي في المغرب خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي فبذلك يمكن فهم ظروف الضعف الداخلي وانحلال الدول وسقوطها وقيام دول أخرى بدلاً عنها.

ومن يمن الطالع ان تقوم دار الشروق بنشر الدراسات الثلاث التي حالت اوضاع لبنان ظروفي الخاصة دون نشرها في وقت سابق. ونتيجة لهذا فقد يجد القارىء الكريم احالات متعددة على مصدر واحد في طبعات مختلفة، وقد اشرت إلى ذلك في مواضعه.

وفي الختام أود أن اشكر الاستاذ محمد المعلم مدير دار الشروق على تلطفه بنشر هذه الدراسة، واخص بالشكر أيضاً الاستاذين الجليلين الدكتور نقولا زيادة لقراءته هذه الدراسات في اصلها الاول، والدكتور الاستاذ احسان عباس الذي افدت من توجيهاته ورعايته، حتى ان اغلب المصادر قد اطلعت عليها في بيته بين جدران مكتبته العامرة.

وعلى الله قصد السبيل.

زاريا في اكتوبر ١٩٧٩

عز الدين موسى



الصلات السياسية بين المشرق والمغرب في عهد الأيوبيين والموحدين

١ ـ الموضوع ومصادره

ان دراسة العلاقات بين المشرق والمغرب العربيين موضوع اهملت دراسته، وبعد الدراسون عنه، بسبب من الجفوة بين المشارقه وبين التحفز لدراسة المغرب في عصره الوسيط. وما حدث الاهتمام بالدراسات المغربية الا حديثاً، فكيف ببحث علاقات المغرب بالمشرق؟! وان كان لتلك الجفوة ما يسوغها في الماضي، فإن ذلك لا يجوز في الحاضر، بعد ان نشر الكثير من النصوص التاريخية المغربية والاندلسية. والحضارة العربية لن يتيسر لها دراسة حضارية شاملة متعمقة الا بعد دراسة جوانبها ومظاهرها. فالدراسة المغربية احدى تلك الجوانب، ودراسة العلاقات بين شرق تلك الحضارة ومغربها مظهر من تلك المظاهر. ورغبة في السير في هذا الطريق رأينا ان يكون موضوعنا لهذا الفصل ذلك المظهر المتعلق بالعلاقات.

والعلاقات بين المشرق والمغرب خلال العصور الوسطى موضوع طويل متشعب، وعليه حددنا زمن الموضوع بفترة الموحدين والايوبيين. فجاء اطاره الزمني من بعد منتصف القرن السادس إلى منتصف السابع الهجريين. وهي فترة خرت بأحداث جسام تشابهت في مظاهرها مشرقاً ومغرباً. فالمغرب منذ زمن مبكر واجه ضغطاً متصلاً من الغرب المسيحي، لبس ثوب استعادة البلاد وانقاذها من أيدي المسلمين، وتتزعم فشتالة والمد، مدعمة لليون وارجون واخيراً البرتغال، وقد واجهت خلافة بني أمية

في الاندلس جزءاً من ذلك النضال، وتصاعد من وجهة النصارى أيام الطوائف، غير ان المغرب منذ القرن الخامس الهجري واجه هذا التحدي بزعامات محلية اتخذت من الاسلام قضية ابتداء من المرابطين ومروراً بالموحدين وانتهاء بالمرينيين. فقد حاول المرابطون ومن بعدهم الموحدون استعادة ما فقد في البلاد اثناء ضعف الخلافة الاموية في قرطبة وتفتت القوى الاسلامية زمن ملوك الطوائف. فبلغ المرابطون ذروة ذلك يوم الزلاقة عام ٤٧٩ هـ. ولكن نجمهم بدأ في الافول بفعل الثورات والفتن الداخلية، لا سيما ثورة الموحدين، فخارت قواهم وورث الموحدون تركتهم بما فيها من مواجهة لقوى خارجية منظمة مصممة على استعادة أرض اخذت منهم قبل اربعة قرون ونصف. ونال الموحدون القدح المعلى في النزاع. وتسنموا علياء المجد في معركة الارك عام ٥٩١هـ. ثم انحدروا حتى انهزموا يوم العقاب في القرن السابع الهجري، بفعل ذات العوامل التي أنهت المرابطين. ومع غياب شمس الموحدين غابت شمس الاندلس او كادت.

وواجه المشرق الوضع ذاته بعد المغرب بقليل. ففي آخر القرن الخامس الهجري بدأت الحروب الصليبية. واحتلت القدس عام ٤٩٢هـ. واستقر الصليبيون في المشرق في وقت ضعف الدولة المرابطية. وبدأ الشرق يستفيق مع الدولة النورية. وصل ذروة ذلك مع الايوبية، يوم احتل صلاح الدين القدس عام ٥٨٣هـ. فالعدو واحد وان اختلفت مواضعه، والاستفاقة واحدة وان اختلفت اماكنها. فهل حاولت اكبر قوتين اسلاميتين متعاصرتين تنسيق الجهود والتعاون؟. وما هي العلاقة التي سادت بينهما؟. وما هو أثر ذلك في الصراع الدائر من حولهما، وفي صلات سكانهما؟. هذا ما سنحاول ان نجيب عليه في هذا الفصل. وسيكون تركيزنا على العلاقات السياسية حتى لا يتشعب الموضوع ولا يمكن حصره، مع تبيان أثر ذلك على المظاهر الحياتية الأخرى.

ان مصادرنا لا تذكر سوى امرين تم فيها اتصال. الاول رمز فرقة واختلاف، جاء مع اعمال قراقوش المظفري الناصري. والثاني محاولة الفة

واتفاق من الايوبيين حتى طالبوا مساعدة الموحدين، ولكن الموحدين رفضوا اليد الممدودة، بتأثير من الحدث الاول، ومن عوامل نفسية وحوادث داخلية، وانشغال بخطر خارجي. وهذان الامران لا تستفيض مصادرنا في ذكر اخبارهما. فنتف هنا وبعض اخبار هناك، وكثيراً ما كانت متناقضة متضاربة.

ولما كان الأمر متعلقاً بالمشرق والمغرب فقد رجعنا لما كتب المشارقة والمغاربة، فابن الأثير جاءت اخباره مجملة، ولكن استفدنا منه كثيراً في أحوال طرابلس وبرقة قبيل النزاع بين الموحدين والصقليين عليها. اما العماد فلم يذكر عن الأمرين شيئاً فجاءت فائدتنا عنه للنظر في الاخبار في اطار التاريخ الايوبي. وابو شامة في روضته ذكر الأمرين معاً، وحفظ وثائق عن اتصال صلاح الدين بالمنصور الموحدي لم نجدها عند غيره. وابن واصل في مفرج الكروب ذكر ما جاء عند ابي شامة من اخبار في الموضوعين دون الوثائق. وحفظ لنا وثيقة من صلاح الدين لرسوله ابن منقذ وهو بالمغرب، افادت في معرفة تاريخ ايفاده. والمقريزي جاء بأخبار قراقوش ولكنها مضطربة، فينسب لابراهيم قراتكين رفيق قراقوش ما تنسبه المصادر الاخرى لقراقوش فأتاح لنا فرصة المقابلة والموازنة بين الروايات وتمحيصها.

وفي المصادر المغربية لم نستطع الاستفادة من مؤرخي الموحدين لفقدان كتبهم. فكتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة لا توجد منه غير قطعة طبعت تشمل الفترة ما بين عامي ٥٥٤ ـ ٥٦٨ هـ. وهي قبل فترتنا التي ندرس. وكذا ابن القطان في نظم الجمان.

غير ان احد المعاصرين للاحداث كتب باستفاضة عن اعمال قراقوش، ولم يذكر امر المراسلة بين صلاح الدين والمنصور، وهو عبد الواحد المراكشي. وأمدنا بان عذارى المراكشي في البيان المغرب بتفاصيل كثيرة عن النزاع بين قراقوش والميورقيين من جهة والموحدين من جهة أخرى. ومعلوماته قيمة لأنه يأخذ عن أناس سبقوه لم تصلنا كتبهم، مثل

ابن صاحب الصلاة. وجاءت أخبار ابن ابي زرع مقتضبة ولكنها مهمة اذ اخذها عمن فقدت كتبهم أيضاً مثل ابن مطروح. أما ابن خلدون ففي امر قراقوش يعتمد على رحلة التيجاني ويذكره صراحة، ولكن ما افدناه منه يتصل بأمر العربان وحوادثهم واتفاقهم مع الغز المصريين. واخباره هنا تختلف عن التيجاني ولكنه يفصح عن مصادره. اما بقية المصادر المغربية فهي متأخرة وتنقل عن المصادر التي ذكرتها.

وفي الكتب الجغرافية وجدنا كبير فائدة عند الأدريي عن احوال برقة وطرابلس قبيل سيطرة الموحدين. واخباره اصلية واهميتها تنبع من قربة من زمن الاحداث. وابن جبير افادنا كثيراً في تتبعه اخبار المغاربة في المشرق، ونظرتهم لاهله، ومعاملة المشارقة لهم. فمعلوماته هنا أساسية لأنه شاهد عيان. ولم يفدنا كتاب الاستبصار الا في معرفة زمن قدوم ابن منقذ إلى المغرب وخروجه منه. فهو معاصر للحدث وكتب في تلك الايام. أما التيجاني فهو المصدر الوحيد الذي افاض في ذكر اخبار قراقوش مدعمًا أخباره بالوثائق وما يحصل عليه من اخبار شفاهة. ومن هذه الوجهة فهو مصدر اولي. ومن كتب الموسوعات لم نستفد من غير صبح الأعشى، الذي حفظ لنا وثيقة مكنتنا رغم تحريفها من مقابلتها وموازنتها بما أورده أبو شامة.

وفي كتب الرحال رجعنا إلى ابن خلكان في وفياته وابن الابار في تكملته وقد افادا في معرفة من رحل من المشرق إلى المغرب او من المغرب إلى المشرق غير ان ابن خلكان اورد اخباراً عن قراقوش وابن منقذ من غير ان يذكر مصادرها، وهي لا تختلف عن من سبقوه.

وكتب الدراسات قليلة. لأن الدراسات عن المغرب نادرة عموماً فكيف بالجزئيات. فالسلاوي في الاستقصا ينقل عن المؤرخين القدماء ويذكرهم صراحة وبخاصة ابن خلدون. والصحراوي في جولات في تاريخ المغرب افرد فصلاً للعلاقة بين صلاح الدين والمنصور اتسمت بالتحليل والموازنة والمقارنة بين الروايات لكنه لا يبين مصادره وقطان معلوماته. اما

الكتب العامة فلم تستفض في هذين الحدثين ونقلت ما ذكره الاقدمون. وهذا حال حتى في تاريخ العرب (مطول). وقد استفدنا من كتاب احسان عباس عن ليبيا في معرفة الاحوال فيها قبل زمن الموحدين وفي زمنهم. أما في اعمال قراقوش فكان جل اعتماده على التيجاني وابن خلدون، ولم يرجع لكتب الايوبيين.

من كل ما تقدم يتضح أن المصادر لم تعط مادة كافية في موضوعنا والدراسات المعاصرة عن ذلك قليلة، فلهذا لم نستطرد في احكامنا وانما حرصنا على ان نسند كل خبر إلى مصدره.

٢ ـ احوال ليبيا وافريقية قبيل فترة البحث:

ان أول اتصال بين الموحدين والأيوبيين ثم على أرض برقة وطرابلس. ومن المفيد ان نعرف التركيب البشري والوضع السياسي لهذه المنطقة حتى نستطيع أن نتفهم الأحداث تفهمًا إن لم يبلغ الحقيقة فليقاربها. فمنذ منتصف القرن الخامس الهجري دخلت قبائل عربية إلى المنطقة من مصر. وتحدثنا المصادر ان هذه الهجرة تمت بتشجيع من الفاطميين لما تحول المعز بن باديس عنهم إلى العباسيين، فأرادوا أن يضربوا دولته، ويخربوا وضعه، ويقلقوا أمنه، فبعثوا بتلك القبائل لتعيث في أرضه[١]. فنزلت سليم وأحلافها من رواحة وناصرة عمرة وبرقة، وواصل بنو هلال زحفهم إلى افريقية[٢]. فاقتسمت القبائل البلاد بينها[٣]. ويحدثنا

---

(١) العبر، جـ ٤ ص ٦٢، جـ ٦ ص ١٤؛ البيان المغرب جـ ١ ص ٤١٧؛ الاستقصا جـ ٢ ص ١٦٥ ـ ١٨١ وهو ينقل عن ابن خلدون؛ وقد ذكر التيجاني ذلك ص ١٧ وما بعدها ولكنه يختلف مع الآخرين فيمن المجيز من وزراء الفاطميين؛ كما أورد صاحب المعجب ذلك في ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦ لكنه في ص ٢٢٤ يستعمل تعبيراً مخففاً إذ يقول «حين خلى بنوعبيد بينهم وبين الطريق إلى المغرب». في هذا الفصل فقط الاشارة إلى العبر دون ذكر لناشر تعني طبعة بولاق والاشارة إلى الكامل تعني طبعة ليدن.

(٢) رحلة التيجاني، ص ١٨؛ الكامل؛ جـ ٩ ص ٣٨٧؛ العبر، جـ ٦ ص ١٤.

(٣) العبر، جـ ٦ ص ١٥.

الادريسي[1]، وهو قريب من زمن الاحداث، ان هيب ورواحة اتخذت ما حول طلميثة داراً، وجعلت بنو كعب ما بين برقة وقابس موطناً، ونزلت سليم بين قابس وطرابلس، واستقرت دباب وعوف بين طرابلس وصرت، وجاورتهم قبائل بربرية متعربة هي مزاته وزبيانه وفزازه. وإن صح الجزء الأخير من رواية الادريسي تكون المنطقة في وقت مبكر مما يدل على أن قبائل قد نزلتها واستقرت بها فأثرت في سكانها الاصليين.

وقد صنف احد الدراسين هجرات القرن الخامس الهجري إلى صنفين: فالاولى كانت تهدف للغزو على زعامة بني قرة وبني خزرون وخربت القيروان ودقت أبواب تونس. والثانية قام بها اخوانهم يحفزهم ما نالت طلائعهم من مغانم نتيجة الفتح والغلبة[2].

وقد جاءت هذه الهجرة بآثار إيجابية وسلبية. فمن الوجهة الايجابية فقد دعمت وعمقت حركة التعريب التي بدأت من ذي قبل[3] وخاصة بعد ان استقر العرب الهلالية في افريقية[4]. غير ان الآثار السلبية كانت في وقتها اكثر وافدح. فمن الوجهة السياسية كانت علاقة العرب الهلالية بمن سبقهم من عرب أو سكان أصليين علاقة نفار وقتال وحرب. فسادت المثل القبلية، وانعدمت الحكومة النظامية، فانفرط عقد الامن مما ساعد على التباعد بين المشرق والمغرب براً. فهدد البدو الطرق السفر حجّاً وتجارة ورحلة. وحياة الغزو المستمرة والحرب الدائمة خُلدت في القصص الشعبي، في قصص أبي زيد الهلالي. وقد اثر هذا الحال في اقتصاد المنطقة بما نتج عنه من خراب ودمار للعمران[5]. وقد رافق هذا الخراب

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في نزهة المشتاق ص ٩٠ - ١٠٣.

(٢) عباس: تاريخ ليبيا ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٣) أنظر العبر، جـ ٦ ص ١٠٣.

(٤) بعد استقرارهم أنشأوا الزوايا واستمرت زمناً حتى رأى التيجاني عدداً منها ص ٢١٢ - ٢١٤.

(٥) الادريسي: نزهة المشتاق ص ٨٩، ٩٠، ١٠٠؛ العبر، جـ ٦ ص ٧٢، ١٠٣.

الاقتصادي دمار عسكري، فقد خربوا التحصينات الساحلية المنيعة التي أقيمت منذ عهد الأغالبة، فتولاها العبيديون بالرعاية، ثم الصنهاجيون بالمداومة والعناية. فضعفت المنطقة الساحلية، وغدت طعمة سائغة لأية غازٍ. فلما سقطت صقلية في يد النورمان عام ٤٨٤هـ، رأى رجار (Roger) ان يستولي على الساحل الافريقي. ففي عام ٥٣٧هـ اخذ جربة وصفاقس والمهدية وطرابلس، غير ان بني زيري ردوه عن طرابلس ولكنه ظل محاصراً[١] لها حتى استسلمت عام ٥٤٠هـ. فدخلها جرجي بن ميخائيل الانطاكي قائد صقلية[٢]، فدخلت منطقة الساحل الافريقيي ضمن السيطرة الصقلية اثني عشر عاماً حتى سنة ٥٥٣هـ[٣] دون منازع. ان دخول قوة خارجية جديدة إلى المنطقة قد أجج نار الصراع الداخلي بين القبائل، ولكن الصقليين عمروا المنطقة مجدداً بما وفروا من آمن وادارة اهلية وما جلبوا من فَعَلَة وخبرة صقلية[٤].

وهذا الصراع المحلي الذي غزاه التدخل الاجنبي، زادت حدته، وتصادعدت ناره، بظهور الموحدين وغلبتهم على المغرب الاقصى واطراف الأوسط. فيبدو ان الصقليين خشوا من امتداد نفوذ الموحدين على الساحل الافريقي. فأرادوا ان يمهدوا لصراع طويل معهم، فأوعزوا لأئمة المساجد في طرابلس بذم الموحدين، فثارت المدينة عليهم[٥]. وانتهز الموحدون الفرصة فأرسلوا جيشاً وقف البدو من هلال في وجهه بتحريض من صقلية، فأردفه عبد المؤمن بجيش قوامه ما يزيد عن الثلاثين الف فارس

---

(١) الكامل، جـ ١١ص ٦٠؛ العبر، جـ ٥ ص ٢٠٢.

(٢) نزهة المشتاق ص ٩٠؛ الكامل، جـ ١١ ص ٧٠؛ رحلة التيجاني ص ٢٤١؛ العبر، جـ ٦ ص ١٦٨، لكنه في جـ ٥ ص ٢٠٣ يذكر أن ذلك تم عام ٥٤١ هـ.

(٣) المعجب ص ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠؛ رحلة التيجاني ص ٢٤٢؛ روض القرطاس ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٤) لقد عهد الصقليون لأبي يحيى بن مطروح بالإدارة مع مجلس من وجوه أهل طرابلس؛ الكامل، جـ ١١ ص ٦٠؛ العبر، جـ ٥ ص ٢٠٢ - ٢٠٣؛ غير أن الادريسي لا يذكر شيئاً عن حركة التعمير، انظر نزهة المشتاق ص ٩٠.

(٥) رحلة التيجاني، ص ٢٤٢.

بقيادة عبد الله بن عمر الهنتاني وسعد الله بن يحيى عام ٥٤٨هـ . فهزمت بنو هلال وجرى تألفها[١]. وفتحت هذه الحملة أعين الموحدين على إمكانية السيطرة على افريقية وطرابلس وبرقة، فضمها عبد المؤمن بين عامي ٥٥٣ ـ ٥٤٥هـ[٢]، وبلغ جيشه جبل نفوسه[٣]، فشاد امبراطورية ضمت المغرب الكبير بأجمعه.

لقد شعر الموحدون بخطورة البدو على الأمن والاستقرار من الوهلة الأولى، فأقروا النظام الذي اسسه الصقليون، فولوا طرابلس لابن مطروح[٤]، وسعوا لتألف البدو، مستفيدين من طاقاتهم مستثمرين لها في حرب الكفار بدلاً عن القلاقل والفتن، فرغبوهم في الجهاد، فمن ذلك ما كتبه القاضي ابن عمران عندما طلب عبد المؤمن استدعاء بني سليم:ـ

أسليم دعوة ذي اخاء مرشد	هاد إلى الحق المبين المسعد
ومذكر ما كان اسلاف لكم	فضلوا به افعال كل مسدّد
بجهاد أعداء الاله ونصرهم	لرسول ربهم النبي محمد[٥]

وسياسة الترغيب في الجهاد هذه التي بدأت مع عبد المؤمن واستمرت مع ابنه أبي يعقوب يوسف[٦] أتت أكلها منذ عهد المؤمن، فيذكر عبد الواحد المراكشي أن عدداً من قبائل هلال بن عامر استجاب وحارب في الأندلس، ورتب بعضهم في نواحي اشبيلية مما يلي شريش والبعض الآخر في في نواحي قرطبة[٧]. واستمر الحال مع ابنه فندبهم

(١) المن بالأمامة، ص ١٧٢؛ الكامل، جـ ١١ ص ١٢٢.
(٢) المعجب ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠، تاريخ الدولتين: ١١ ـ ١٢؛ البيان المغرب جـ٣ ص ٣٨ ـ ٤٣؛ استقصا جـ ٢ ص ١٣٩.
(٣) الكامل، جـ ١١ ص ١٦٠.
(٤) تاريخ الدولتين ص ١٢.
(٥) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٩؛ وأنظر مثلاً آخرا في المعجب ص ٢٢٥.
(٦) انظر البيان المغرب جـ٣ ص ٨٨ وقصيدة ابن الطفيل التي احتذت مثل قصيدة ابن عمران.
(٧) المعجب ص ٢٢٦.

للغزو عام ٥٦٦هـ فخفت إليه «رياح بالبدار والمسارعة والطاعة[1]». ولكن مع يعقوب المنصور اختلف الأمر وتبدل الحال، فكثرت فتن العرب، وغدا تغريبهم عقاباً، حتى ان ابن ابي زرع يقول انه ندم عند وفاته على استجلابهم للمغرب لأنهم «أصل فساد»[2]. ويبدو لي أن هذا التبدل طرأ نتيجة عوامل جديدة، هي ظهور الغزّ المصريين في منطقة برقة وطرابلس وافريقية، ثم دخول الميورقيين إلى المنطقة وتحالف العرب مع كليهما. ولهذا شهد عصر المنصور الموحدي فتناً متعددة وثورات كثيرة، ونزاعاً متشعباً.

فهذه المنطقة التي شهدت الصراع القبلي الدموي الذي رافق هجرة القرن الخامس الهجري، والتدخل الاجنبي الصقلي، ثم الغزو الموحدي، كانت أرض أول اتصال بين الأيوبيين والموحدين مع حملات قراقوش الأرمني. فهل أراد الأيوبيون السيطرة على هذه الرقعة كما اراد عرب هلال ورياح والصقليون ثم الموحدون؟

٣ ـ أعمال قراقوش: .

من أجل أن نتبين موقف الأيوبيين من الصراع على منطقة برقة وطرابلس وافريقية، علينا بادي ذي بدء، ان نستجلي الدوافع الحقيقية وراء حملة قراقوش، وهل هي نتيجة تخطيط رسمي من قبل الدولة أم اجتهاد شخصي دافعه المصحلة الذاتية من قبل بعض الامراء أو المماليك الذين قاموا بالحملة؟. والاجابة على هذا التساؤل ليست باليسيرة. فالمصادر المشرقية المعاصرة سكتت عنها والمغربية مضطربة في الحديث عن الدوافع والأحداث. وعليه لا بد من جمع أخبار متفرقة مبتورة الصلة واستخراج صورة منها، سابرين غور ما توفر من حقائق، مستجلين المواقف من بينها، في غير اسراف وتحميل للنصوص ما لا تطيق.

---

(١) البيان المغرب جـ٣ ص ١١٤؛ أنظر مثلاً آخر في المن بالامامة، ص٣٩٨، ٤٠٩ وما بعدها.

(٢) روض القرطاس ص ١٥٢.

فهل بعث صلاح الدين الأيوبي بتلك الحملات؟ فالتيجاني في الرحلة يثبت ذلك ويربطه بالوحشة بين صلاح الدين ونور الدين[١]. وتابعة في ذلك ابن خلدون[٢]. أضف إلى ذلك أن نور الدين بعث إلى الخليفة المستضيء يقول «وكذلك استولى عساكر مصر....... على برقة وحصونها وتحكموا في محكم معاقلها وحصونها حتى بلغوا إلى حدود المغرب، فظفروا من السؤال بعنقاء مغرب»[٣] وصلاح الدين نفسه بعث رسالة إلى الخليفة الناصر لدين الله يقول «ونحن والحمد لله قد ملكنا ما يجاور منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسيّرنا عسكراً بعد عسكر رجع بنصر بعد نصر، ومن البلاد المشاهير والاقاليم الجماهير: لك - برقة - قفصة - قسطيلية - توزر[٤]......». وابن خلدون يعلل اتصال قراقوش بان غانية بأن صلاح الدين أمره بذلك حسب طلب الخليفة العباسي اذ أن ابن غانية كان يدعو للعباسيين[٥]. وأخيراً مما يدعم هذا الرأي القائل بمسؤولية صلاح الدين عن قراقوش، ان قراقوش كان يخطب باسم صلاح الدين وتقي الدين[٦]، فما هو رأينا في هذه الحجج؟.

أولاً: إن أول من ربط حملة قراقوش بالوحشة بين صلاح الدين ونور الدين هو التيجاني، والتيجاني كتب في مطلع القرن الثامن الهجري في تونس، فهو بعيد عن هذا الحدث زماناً ومكاناً، وخاصة ان من ارخ للدولة الايوبية من المشارقة امثال ابن شداد والعماد وأبي شامة لم يذكروا ذلك مع أنهم ذكروا قصة اليمن[٧].

ثانياً: كون نور الدين أو صلاح الدين كتبا للخليفة العباسي مدعين

---

(١) رحلة التيجاني ص ١١١ - ١١٢.
(٢) العبر، (دار الكتاب اللبناني) جـ٦ ص ٣٩٤.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ١ ص ٢٣٥.
(٤) القلقشندي: صبح الاعشى جـ١٣ ص ٨٧ والخط تحت عبارة «وسيرنا...» من وضعنا.
(٥) العبر، (دار الكتاب اللبناني) جـ٦ ص ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨.
(٦) السلوك جـ١ صض ٦٠ ؛ رحلة التيجاني ص ١١٢ - ١١٣.
(٧) أبو شامة: الروضتين جـ١ ص ٢٠٣/ ٢٠٤.

اعمال قراقوش لنفسيهما فهذا امر لا ينهض وحده دليلاً في القضية. فنور الدين كان ينسب أعمال صلاح الدين لنفسه ولا يعرف دوافع أعماله وخفايا نفسه. فقد اتخذ صلاح الدين نور الدين غطاء ولما حانت الفرصة ظهرت حقيقة موقفه من ادعاء السلطان لنفسه والاثرة به. ولعل هذا هو موقف قراقوش الأرمني حين كان يخطب باسم صلاح الدين وتقي الدين، فلم تسعفه الظروف ليعبر عن ذات نفسه لأن احلامه تبددت وما سيده قد انهار قبل ان يستقر على حال.

ثالثاً: إن صلاح الدين ظهر في ظروف غير طبيعية. فموقفه في مصر لن يستقر إلّا إذا أمن جانب الصليبيين في الشام. وهذا الخطر الداهم شغله طوال أيام سلطانه. فلو وجد الاستقرار لنشد بسط سلطانه على منطقة النزاع الموحدي الصقلي. ولهذا نجده عام ٥٨٢ هـ يمنع تقي الدين ابن اخيه عن المسير إلى المغرب ذاكراً ذات الحجة، متمنياً ذات الهدف، إذا ما أمن الشام وفلسطين فيقول له «وإذا فتحنا القدس والساحل طوينا إلى تلك الممالك المراحل[١]».

فلكل ما تقدم أميل إلى عدم الربط بين صلاح الدين وأعمال قراقوش في المغرب. وقد ذكرنا أنه كان يخطب لتقي الدين فمن هو تقي الدين هذا؟ وهل كان وراء قراقوش؟.

تقي الدين هو ابن أخي صلاح الدين، وقل أن نجد إشارة توضح شيئاً عن الدوافع إلّا وجدنا اسمه مقروناً بها. فالتيجاني الذي يذكر ان الامر تم برغبة صلاح الدين يوضح لنا ان تورانشاه أوفد إلى اليمن، واستعد[٢] ابن اخيه المظفر تقي الدين للسير إلى المغرب. ثم يبين ان تقي الدين امتنع[٣] وفي موضع آخر يقول أنه أحجم لما عرف طبيعة برقة وسيادة

---

(١) الروضتين جـ ٢ ص ٧٠.

(٢) الغريب ان ابن خلودن ينقل عن التيجاني هذا الخبر ويذكره صراحة غير ان الاستعداد عند التيجاني يتحول إلى سفر عند ابن خلدون ويرجع من الطريق، العبر، (دار الكتاب اللبناني) جـ ٦ ص ٣٩٤.

(٣) رحلة التيجاني ص ١١١ - ١١٢.

العربان فيها[1]. فكيف يؤمر من صلاح الدين ويمتنع دون أن يترك ذلك أثراً في العلاقة بينهما بل كيف يولي صلاح الدين تقي الدين على الفترات فيها بعد!؟ أما أن يعزم ويرجع خوفاً من سيطرة العربان فهذا أمر تنفيه طبيعة تقي الدين، فقد كانت له نفس وثابة وقلب طموح وعزم حديد، فهو أبداً وراء ملك يحتوي عليه، ورقعة أرض يسيطر عليها، فلما ولي على الفرات أخذ في الامتداد في ممالك الآخرين فتشكوا لصلاح الدين منه[2]، وبسبب من اشتغاله بمحاربة جيرانه وجد صلاح الدين عليه في اواخر ايامه[3]. ولهذا نشك في رواية التيجاني ونرجح رواية من هو أقرب لزمن الأحداث ومكانها. فنحن ما أبي شامة في قوله «ولما ملك شمس الدولة اليمن سمت نفسه ابن أخيه تقي الدين إلى الملك وجعل يرتاد مكاناً يحتوي عليه فأخبر ان قلعة زبرى هي فم درب المغرب»[4]. ومما يؤيد قول أبي شامة هذا أنه لما عقد صلاح الدين عام ٥٨٢هـ للظافر على حلب وللعزيز على سلطنة مصر وللعادل النيابة فيها[5]، عزم تقي الدين على المسير إلى المغرب، فاسترضاه صلاح الدين بأن وسَّع رقعة إداراته في الفرات[6].

وإذا كان الأمر كما رجحناه فلم امتنع تقي الدين عن الذهاب إلى المغرب في المرة الأولى؟ وفي غياب النصوص الكاشفة عن حقيقة الوضع لا يسعنا إلّا أن نفترض أن الامتناع تم بتدخل صلاح الدين كما تدخل في المرة الثانية. فإذا جاز الأمر في المرة الثانية بسبب وجود الفرنجة، ففي المرة الأولى كان وضع الأيوبيين أحرج بوجود نور الدين. وعلى هذا نستطيع

(١) المصدر نفسه ص ١١٢.
(٢) الروضتين جـ٢ ص ٧٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٢ ص ٣٧٥/ ٣٧٦.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٢ ص ٣٧٧.
(٤) الروضتين جـ١ ص ٢٦٠.
(٥) الروضتين جـ٢ ص ٧٠ مفرج الكروب جـ٢ ص ١٧٨ . ١٨٠.
(٦) المصدران السابقان جـ٢ ص ٧٠؛ جـ٢ ص ١٨١/ ١٨٢.

القول ان تذخل الأيوبيين رسميا لم يتم مع قراقوش ولكن الرغبة عند صلاح الدين كانت قائمة، غير أن الظروف كانت غير مواتية، وعند أحد امرائهم ظلت واردة حيناً بعد آخر.

فلما قام قراقوش بأعماله تلك؟ يبدو لي ان استعداد تقي الدين في المرة الأولى قد نبه قراقوش إلى امكانية السيطرة والملك في المغرب، وخاصة أن الاستعداد يفترض الدراسة بعد بث العيون. ولهذا نقبل بالرواية القائلة إنه لما امتنع تقي الدين عن الذهاب فر مملوكه قراقوش وابراهيم قراتكين بطائفة إلى المغرب[١]. ومما يدعم هذا الرأي فرار بوازبه مملوك تقي الدين بعد الاستعداد الثاني[٢]. وهذا الطموح بلا ريب كان سنة العصر بين المماليك، وخاصة أن بين اتباع قراقوش جماعة مثقفة واعية[٣]. وعلى هذا فقد قام قراقوش بعمله بدافع شخصي. وكسباً للاعتراف كان يخطب لصلاح الدين وتقي الدين، كما ظلت علاقته بمولاه طيبة، فلهذا كتب يستدعيه عام ٥٨٢هـ ذاكراً ان «البلاد سايبة[٤]». فعام ٥٨٢ هـ يمثل أوج سلطة قراقوش في المغرب، فلا غرابة في ان يتبنى صلاح الدين اعماله كما لا غرابة في أن يأمره بالتعاون مع الميورقيين[٥] وخاصة انهم عباسيون في النظرة مثله. وقد ظلت علاقة الأيوبيين بالميورقيين طيبة حتى ان ابراهيم بن اسحاق بن غانية مات بدمشق نازلاً على السلطان الملك العادل[٦]. وهذا التعاون بين قراقوش والميورقيين يدل على أن الأيوبيين كانوا يمهدون للتدخل ولكن ظروفهم لم تسعفهم. والموحدون كانوا يعلمون ذلك منهم ولهذا لما طلب صلاح الدين النجدة من يعقوب المنصور كان صلاح الدين يخشى من ذلك فشرح لرسوله كيفية الاجابة على ذلك إن سئل[٧]. فمن

---

(١) رحلة التيجاني ص ١١٢.
(٢) الروضتينجـ ٢ ص ٧٠؛ مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٨٢.
(٣) انظر المعجب، ٢٩٠ - ٢٩١.
(٤) الروضتين جـ ٢ ص ٧٠؛ مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٨٠.
(٥) العبر، (دار الكتاب اللبناني) جـ ٦ ص ٣٩٨.
(٦) المعجب ص ٢٧٠.
(٧) انظر خطاب صلاح الدين إلى ابن منقذ: الروضتين جـ ٢ ص ١٧١.

هـو قراقوش؟ ومتى خرج؟ وماذا فعل؟ وما هو أثر اعماله على الأيوبيين والموحدين والعلاقة بينهما؟.

قراقوش[١] هو شرف الدين[٢] قراقوش أرمني الجنس[٣] وينسب أحياناً إلى المظفر لأنه مملوكه، وللناصر صلا ح الدين لأنه يخطب له[٤]. ورفيقه إبراهيم قراتكين مملوك الملك المعظم شمس الدولة أخي صلاح الدين وكان في جند تقي الدين[٥].

إن المصادر مضطربة ومتباينة عن بداية أمر قراقوش. فالبداية عند أبي شامة في روضتيه ٥٧١ هـ[٦]، وعند ابن واصل ٥٦٨ هـ حسب ما يستفـاد من رسالـة نور الـدين للخليفـة العبـاسي اذا كـانت في هـذا التاريخ[٧]. وعند التيجاني ٥٦٨ هـ[٨] ولكنه يعود ويـذكر ٥٨٦ هـ[٩]. وعند المقريزي ٥٧٣ هـ[١٠]. ونحن لا يسعنا قبول رواية المقريزي فمع كونه متأخراً في الزمن جاءت أخباره مضطربة، فينسب لابراهيم قراتكين ما نسبته المصادر الأخرى لقراقوش[١١]. اما التيحاني فقد ذكر سنة ٥٨٦ هـ في معرض خبره عن وصول ابن مطروح إلى الاسكندرية. وما أورده بصورته تلك فيه خلط بين فترات مختلفة ولا يسلم من التحريف. فعليه نحن بين

---

(١) في المعجب قراقس ص ٢٨٩، وكذا العبر، (دار الكتاب اللبناني) جـ٥ ٦٢٩ وما هنا في الروضتين جـ١ ص ٢٦٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ١ ص ٢٣٥، رحلة التيجاني ص ١٠٣.

(٢) رحلة التيجاني، ص١٠٣ وفي الروضتين جـ١ ص٢٦٠ «بهاء الدين» ويبدو أن في الأمر خلط مع بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين.

(٣) رحلة التيجاني ص ١٠٤.

(٤) المصدر نفسه ص ١١٤.

(٥) رحلة التيجاني ص ١١٢.

(٦) الروضتين جـ١ ص ٢٥٩.

(٧) مفرج الكروب جـ١ ص ٢٣٥.

(٨) رحلة التيجاني ص ١١١.

(٩) رحلة التيجاني، ص٢٤٣ وابن خلدون يتابع هذا التاريخ نقلاً عن التيجاني.

(١٠) السلوك جـ١ ص ٦٠.

(١١) السلوك جـ١ ص ٦٥.

روايتين: ما ذكره ابن واصل والتيجاني في روايته الأولى من ان البداية كانت سنة ٥٦٨ هـ، ورواية ابي شامة التي تذكر سنة ٥٧١ هـ. فإذا تذكرنا ان امر استعداد تقي الدين كان بسبب الحرب اليمنية التي كانت في سنة ٥٦٩ هـ[١]، فالراجح ان يكون بدء امر قراقوش بين ٥٦٩ هـ و ٥٧١ هـ. ومن الصعب ان نعالج تطور أعمال قراقوش في تسلسل زمني لأن المصادر في ذلك مصطربة، فأبو شامة يذكر ان قراقوش عاد إلى مصر بعد وصوله طرابلس[٢] مما يقوي زعمه ان قراقوش لا يظهر في مسرح الأحداث في الفترة ما بين ٥٧١ هـ إلى ٥٧٩ هـ. حتى ان يوسف بن عبد المؤمن لما أخذ قفصه من بني الطويل لم يجد الا قراتكين[٣]. فلو كان مسيطراً على نواحي برقة وطرابلس لتتبعه الموحدون. ومن هنا قد لا يعني التاريخ الذي ذكره أبو شامة غير انتهاء المرحلة الأولى التي تنتهي برجوعه إلى مصر. ومن هنا نقول ان بداية امره كانت في حدود ٥٦٩ هـ وتنتهي المرحلة الأولى برجوعه إلى مصر حوالي ٥٧١ هـ؛ وتبتدىء المرحلة الثانية في حدود ٥٧٩ هـ عام سيطر قراقوش على طرابلس للمرة الأولى[٤]؛ والمرحلة الثالثة تمثل تحالفه مع الميورقيين بعد ٥٨١ هـ؛ والمرحلة الرابعة هي فترة خضوعه للموحدين منذ/٥٨٣ هـ؛ ثم المرحلة الخامسة تمثل فراره من الموحدين وسيطرته على طرابلس وخلافه مع الميورقيين ونهايته. فلننظر للأحوال كما تعكسها مصادرنا.

تبدأ المرحلة الأولى التي نرجح انها بين ٥٦٩ هـ و ٥٧١ هـ بفرار قراقوش وإبراهيم قراتكين. وفي الطريق افترقا ليملك كل ما يفتحه[٥]. فسار قراتكين حتى سيطر على قفصة وخطب فيها للخليفة العباسي وصلاح

---

(١) الروضتين جـ ١ ص ٢١٦.

(٢) الروضتين جـ ١ ص ٢٠٦.

(٣) رحلة التيجاني، ص ١١٤ وظل بها حتى قتله المنصور.

(٤) يذكر التيجاني انه وجد وثيقة بتوقيع قراقوش مؤرخة عام ٥٧٩ هـ انظر رحلة التيجاني ص ١١٤.

(٥) رحلة التيجاني ص ١٠١٢.

الدين وظل بها حتى قتله المنصور[1]. اما قراقوش فقد فتح سنترية وخطب فيها لصلاح الدين وتقي الدين[2]، فسار إلى زلة فأوجلة واخد من صاحبها عشرين ألف دينار فرقها في أصحابه وعشرة آلاف لنفسه[3]، وتزوج بنته مقابل أن يحفظهم من العربان، فلما علم أهل الازرقية بصنيعه، دعوه إلى بلدهم داخلين في طاعته. فخلف في أوجلة عدداً من رجاله على رأسهم رجل اسمه صباح[4]. وفي غيابه توفي صاحب أوجلة فثار أهل البلد وقتلوا رجال قراقوش، فعاد إليها وحاصرها فاحتلها عنوة وقتل من أهلها سبعمائة رجل، وفاز بغنائم كثيرة[5]. ثم رجع إلى مصر لأن رجاله رغبوا في ذلك، وخشي أن يقيم وحده[6].

ويرجع قراقوش مرة أخرى إلى مسرح الأحداث، ولا نعلم تاريخ رجوعه ولا سببه، ولكن انتصاراته الأولى فيها يبدو أغرته بمواصلة النضال حتى يفوز بدولة. وأرجح أن عودته كانت بعد ٥٧٦ هـ لأن ابا يعقوب تفرغ لأمر افريقية ولم تكن من ثورة إلّا بقفصة. فانتصار الغز المصريين وانشغال الموحدين بأمر الأندلس اغرى علي بن المعز واليها الذي طرده قراتكين بالسيطرة عليها والاستقلال بها. كذا فعل عليّ، حتى سار إليه الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن وأعادها إلى حظيرة دولته عام ٥٧٦ هـ[7]. فجاءته جموع قبلية رياح «بالبدار والمسارعة» طالبين للامان[8]. ومن دلائل هدوء الأحوال ولزوم الناس للموحدين ان سار ابو

---

(١) رحلة التيجاني، ص ١١٤، والمقريزي ينسب له ما نسبته المصادر الاخرى لقراقوش السلوك جـ١ ص ٦٠.

(٢) رحلة التيجاني، ص ١١٢؛ العبر، (دار الكتاب اللبناني) جـ٦ ص ٣٩٤؛ السلوك جـ١ ص ٦٠، وابو شامة لا يذكرها ولكنه يذكر قلقة أزبري الروضتين جـ١ ص ٢٦٠.

(٣) نفس المصادر السابقة والمقريزي يذكر احتلال زلة بعد أوجلة.

(٤) الروضتين جـ١ ص ٢٦٠.

(٥) الروضتين جـ١ ص ٢٦٠؛ السلوك جـ١ ص ٦٠.

(٦) الروضتين جـ١ ص ٢٦٠.

(٧) الاستبصار ص ١٥١؛ المعجب ص ٢٥٢، روض القرطاس ص ١٣٩.

(٨) ابن عذارى: البيان المغرب جـ٣ ص ١١٤؛ تاريخ الدولتين ص ١٤

سرحان مسعود بن سلطان الرياحي عام ٥٧٧ هـ إلى مراكش في جيش عظيم من وجوه رياح برسم الخدمة[١]. فمجيء قراقوش الثاني يكون بعد هذا التاريخ وقبل ٥٧٩ هـ لأن هذا التاريخ الثاني يمثله وهو حاكم لطرابلس. فأول ما قدم دخل زويلة وقتل ملكها محمد بن خطاب بن عبد الله ابن زنفل بن خطاب، وخطب فيها لصلاح الدين وتقي الدين، ووصل إلى نواحي طرابلس[٢] وهناك تحالف مع دباب، وبهم استولى على جبل نفوسه[٣]. فخلعت رياح طاعة الموحدين ودخلت معه في امره. وبحلفه الجديد فتح طرابلس وتوافدت عليه العربان من كل مكان «فاجتمع إليه ذؤبان العرب من هلال وسليم وفرض لهم العطاء واستبد بملك طرابلس وما وراءها»[٤] كما يقول ابن خلدون. وهذه المرحلة تمثل طور عزه وأعلى ما بلغه.

وبعد سنة ٥٨١ هـ دخلت أعماله في مرحلة جديدة ثالثة، اذ دخل افريقية غازٍ مرابطيّ من ميورقة يعرف بابن غانية. وتحالف الغز المصريون والعربان الخارجون عن طاعة الموحدين مع الميورقيين الملثمين، فطغت أخبار ابن غانية على الجميع، واصبح رمز الحلف الجديد إلى حين، حتى أن المؤرخين يذكروا أخبار قراقوش وصحبه إلّا عرضاً. ولما فتح المنصور قفصه من أيديهم ومدحه إبراهيم الزويلي لم يشر للغز أو العربان بل ذكر الميورقي اذ قال:

سائل بقفصة هل كان الشقي لها ... بعلاً وكانت له حمالة الحطب
تبّت يدا كافر بالله ألهبها ... فكان كالكافر الأشقى أبي لهب
لما زنت وهي تحت الأمر محصنة ... حصبتموها اتباع الشرع بالحصب[٥]

---

(١) روض القرطاس ص ١٣٩.
(٢) رحلة التيجاني، ص ١١٢ - ١١٣؛ العبر، (دار الكتاب اللبناني) جـ ٦ ص ٣٩٤.
(٣) رحلة التيجاني، ص ١١٣؛ العبر، دار الكتاب اللبناني) جـ ٦ ص ٣٩٤.
(٤) العبر، (دار الكتاب اللبناني) جـ ٦ ص ٣٩٥؛ الاستقصا جـ ٢ ص ١٦٠
(٥) المعجب؛ ص ٢٧٥. وفي الأعمال المشتركة نجد ابن عذارى يكتفي بكلمة الغز.

وأصل علي بن اسحاق بن محمد بن غانية من جزيرة ميورقة، وقد حكمها جده محمد بن علي بن غانية منذ قيام ثورة الموحدين، فأقره علي بن يوسف بن تاشفين عليها وعلى جزيرتي منرقة ويابسة. فلما انتصر الموحدون ظل عليّ على أمر لمتونه والدعوة للعباسيين. ولكن ابنه اسحاق ارتبط بالموحدين في مودة دون اعتراف[1] فلما توفي يوسف وتولى المنصور الأمر، وكان عليّ بن اسحاق هو المتولي للامر بعد أبيه، أراد ان يغتنم الفرصة ويعيد أمر لمتونة. فدخل بجاية سنة ٥٨٠ هـ[2] فأخذ الجزائر ومازونه ومليانه وقسنطينة، فجرد عليه المنصور ابا زيد بن ابي حفصي بن عبد المؤمن. فلاذ ابن غانية بالصحراء[3]. ففي الصحراء كان تحالف ابن غانية مع قراقوش الذي كان مسيطراً على طرابلس وتوزر وقابس ابتداء من سنة ٥٨١ هـ[4]. وفي هذه العام بلغت قوتها ذروتها فسيطرا معاً على قفصة[5] وبلاد الجريد بأجمعها[6]. فشايعتهم قبائل هلال من جشم ورياح والأثبج ـ غير ان زغبة ظلت على ولائها للموحدين ـ بالإضافة إلى فل لمتونة[7]. وأقام الميورقي الدعوة العباسية، وكاتب خليفتها الذي اشار على صلاح الدين بتعاون قراقوش مع الميورقيين فيما زعم ابن خلدون[8]. ولنتصور تلك القوة التي بلغوها، علينا أن نذكر أن قراقوش كاتب تقي

---

(١) انظر عن بني غانية المعجب ص ٢٦٦ وما بعدها، البيان المغرب جـ ٣ ص ١٤٦ وما بعدها؛ العبر، (دار الكتاب اللبناني) جـ ٦ ص ٣٩١.

(٢) المعجب ص ٢٦٦، الاستبصار ص ١٣١ ؛وفيات الاعيان جـ ٦ ص ١٨؛ روض القرطاس ص ١٤٣؛ ولكن البيان المغرب جـ ٣ ص ١٤٦ والاستقصاء جـ ٢ ص ٢ ص ١٥٩ يذكران عام ٥٨١ هـ 'بينما «ص ١٥ عام ٥٨١ هـ . ويقول» تاريخ وقيل عام ٥٨٢ هـ واعتمدنا الرأي الأول لأن المراكشي وصاحب الاستبصار الدولتين معاصران للاحداث.

(٣) البيان المغرب جـ ٣ ص ١٤٨ ـ ١٤٩؛ استقصا جـ ٢ ص ١٦٠.

(٤) استقصا جـ ٢ ص ١٦٠.

(٥) الاستبصار ص ١٥١، رحلة التيجاني ص ١٣٦.

(٦) المعجب ص ٢٧٢.

(٧) العبر، (دار الكتاب اللبناني)جـ ٦ ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

(٨) نفس المصدر جـ ٦ ص ٣٩٨.

الدين ذاكراً أن البلاد سايبة طالبـاً منه القـدوم، وكان ذلـك في عام ٥٨٢ هـ[١]. فما منعه غير صلاح الدين كما مرَّ بنا. ولكن الفرصة السانحة أغرت مملوكاً له هو يوزبا ففرَّ بطائفة، وسيطر على بعض بلاد افريقية حتى قدم المنصور فقضى عليه[٢] عام قضى على ثورة قراقوش والميورقيين.

فلما استفحل خطبهم جرد المنصور جيشاً ونزل تونس فرماهم ببعضه فانهزم الموحدون، فخرج الخليفة بنفسه. فانهزم تحالف لمتونه والغز والعربان عام ٥٨٣ هـ، وفر عليّ بـن غانية إلى الصحراء، ودخل المنصور قابس مركز قراقوش فتوزر ثم قفصة، وكر على عرب افريقية حتى استسلموا[٣]. ثم رجع إلى مراكش بعد ان غرب بني هلال وجشم[٤]، واستسلم قراقوش ومجموعة من الغز المصريين، واظهورا الطاعة للمـوحدين، فحملوا إلى مراكش واكرموا واعطوا جامكية كل شهر، بينما جامكية الموحدين ثلاث مرات في العام. واقطعوا الأراضي تألفاً، فإقطاع احمد الحاجب لم ير مثله لقرابة المنصور، ونصيب شعبان بالاندلس كان يغل كل سنة تسعة الاف دينار[٥]. ويبدو ان قراقوش استسلم في حدود ٥٨٤ هـ لأن ابن خلدون يصوره في ذلك العام خارجاً عن طاعة الموحدين محارباً لهم[٦].

أما أمر الميورقيين فقد آل إلى يحيى بن غانية بعد وفاة أخيه علي بتوزر عام ٥٨٤[٧]. وظل يحيى ثائراً ببلاد الجريد، ممتنعاً مع من شايعه من العربان[٨]. ورجع المنصور إلى مراكش دون أن يستأصل شأفة ابن

---

(١) الروضتين جـ٢ ص ٧٠؛ مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٨٠.
(٢) نفس المرجعين ص ٧٠؛ ص ١٨٢ على التوالي.
(٣) انظر المعجب ٢٧٢ ـ ٢٧٤، رحلة التيجاني ص١٠٣ وما بعدها، البيان المغرب جـ٣ ص ١٥٧ ـ ١٧٠، تاريخ الدولتين ص ١٦؛ استقصا جـ ٢ ص ١٦٠ ـ ١٦١.
(٤) استقصا جـ ٢ ص ١٦٨.
(٥) المعجب ص ٢٨٨، ٢٩٠.
(٦) العبر (دار الكتاب اللبناني) جـ ٦ ص ٣٩٧.
(٧) الاستبصار ص ١٣١، غيران ابن خلكان يذكر انه كان حياً بعد عام ٥٩١ هـ. وفيات الاعيان جـ ٦ ص ١٨.
(٨) المعجب صض٢٧٣.

غانية وذلك لأن أخا المنصور أبا حفص عمر الملقب بالرشيد وعمه سليمان قد ثارا ثم قتلا صبرا[1] كما اغتنم نصارى الاندلس الفرصة فدخلوا شلب وبعض بلاد غرب الأندلس[2] مما اضطر المنصور للجواز عام ٥٨٩ هـ . وفي انشغاله بأمر الاندلس استأنف ابن غانية مسيرته فاستولى على الساحل خلا قسنطينة وبجاية، فسار إليه أبو عبد الله عام ٦٠١ هـ بعد وفاة المنصور إذ قضى المنصور بقية مدته في جهاد نصارى الأندلس[3]. فأطمعت الظروف الجديدة قراقوش ففر عام ٥٨٦ هـ[4] من عند أبي زيد بن أبي حفص في تونس[5]، ودخل قابس خدعة، وقتل جماعة من عرب الدبابيين منهم محمود بن طوق بن بقية، ثم اخضع طرابلس[6]. وما لبث ان اختلف مع الميورقي، فاستمال ابن غانية العرب بالنسب[7]، وحصر قراقوش في طرابلس وهزمه، ففر إلى ودان، فأخذ ابن غانية قابس[8] وحاصر طرابلس براً وبحراً مستعيناً بأخيه صاحب ميورقة. وكان قراقوش قد خلف بها غزياً يدعى ياقوت فاستسلم[9] وأخذ إلى ميورقة، وظل بها حتى أخذه الموحدون إلى مراكش لما فتحوا الجزيرة[10]. ولحق ابن غانية بقراقوش بودان وحصره حتى نفد طعامه فاستسلم، وقتل مع ابنه سنة ٦٠٩ هـ[11]. ومنهياً بذلك فضلاً دام ما يزيد عن الأربعين عاماً. مخلفاً أعمق الآثار في التركيب البشري للمنطقة، والوضع الداخلي للدولة،

---

(١) نفس المصدر ص ٢٧٦، ٢٨٨.
(٢) المعجب ص٢٨٠، روض القرطاس ص ١٤٤.
(٣) المعجب ص ٣١٧ - ٣١٨.
(٤) رحلة التيجاني ص ١٠٤.
(٥) العبر، (دار الكتاب اللبناني) جـ٦ ص ٣٩٨.
(٦) رحلة التيجاني ص ١٠٤.
(٧) نفس المصدر ص ١١٤ - ١١٥.
(٨) نفس المصدر ص ١١٠.
(٩) نفس المصدر ص ٢٤٤ - ٢٤٥.
(١٠) رحلة التيجاني ص ٢٤٤ - ٢٤٧.
(١١) نفسه ص ١١٠ أما الميورقي فقد اتصل امره حتى مات سنة ٦٣٣ انظر وفيات الاعيان جـ٦ ص ١٨.

والعلاقة الخارجية مع المسلمين والنصارى. فما هي تلك الاثار؟.

بسبب مشايعة العرب لقراقوش أولاً ثم الميورقي ثانياً عمل المنصور على تغريب العرب عقاباً وتأديباً، يقول السلاوي «فانزل رياح من بني هلال ببلاد الهبط..... وانزل قبائل جشم بلاد تامسنا البسيط الافيح»[1]. ويبدو ان العدد كان كبيراً حتى ان عبد الواحد المراكشي يقول عن ايامه ـ ٦٢١ هـ «فبالجزيرة اليوم من العرب من زغبة ورياح وجشم بن بكر وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرّحّالة[2]».

كما أن حروب قراقوش وما أحرزه من نجاح في بعض مراحله أطمع بعض الولاة فشقوا عصا الطاعة مثل علي بن المعز والي قفصة[3]. ثم أن انشغال الخلافة بأمره اتاح للطامعين من الأسرة المؤمنية الفرصة كما مر ذكره، فأضعف ذلك هيبة الحكم في أعلى مستوياته. أضف إلى هذا أن النصارى كانوا يغيرون على أنحاء الاندلس كلما انشغلت الخلافة بأمر افريقية. واعظم من ذلك خطراً أن تحالف الاغزاز مع ابن غانية دام حتى قيام الدولة الحفصية، يقول المراكشي في ذلك «وهذا أول اختلال وقع في دولة المصامدة ولم يزل اثره باقياً إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ هـ»[4].

وأجلُّ وأعظم أثرٍ هو الشرخ الذي خلفته أعمال قراقوش في العلاقة بين أكبر قوتين اسلاميتين في عصرهما، واجهتا أعظم تحدٍّ غربي في شكل الحروب الصليبية في المشرق وحروب الاستعادة في المغرب. وعلى الرغم من أن الدولة الايوبية لم تكن وراء أعمال قراقوش فقد خطب باسمهم، وما استنكروا ذلك منه، بل عملوا على تنسيق عمله مع الميورقيين. وكان الموحدون يعلمون ذلك والايوبيون يشعرون بعلم الموحدين بذلك، ولهذا طلب صلاح الدين من رسوله ان يبين ان مسؤولية اولئك المماليك هو منها بريء. وكأني بالمنصور يقول في نفسه لما جاء

(١) استقصا جـ ٢ ص ١٦٨ ـ ١٦٩.
(٢) المعجب ص ٢٢٦.
(٣) المرجع نفسه ص ٢٥٢.
(٤) المعجب ص ٢٦٧.

صلاح الدين محتاجاً متبرئاً: الآن وقد كنت من المؤيدين؟؟ ويبـدو أن المنصور أراد أن يعمل على غزو مصر فما أسعفته الظروف. فقد قال عبد الواحد المراكشي وهو معاصر للاحداث «فبلغني عن غير واحد انه صرح للموحدين بالرحلة إلى المشرق وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ويقول ان شاء الله مطهروها، ولم يزل هذا عزمه إلى ان مات»[1]. ويبدو لي أن ما ذكر في كتاب اخبار المهدي من ان له اصحاباً واتباعاً بمصر[2] من المسائل التي اخترعت بأخرة وقد يعود عهدها لهذه الفترة، وقد يكون المنصور بعث العيون لذلك وبدا كأن تلك الرسل في مصر منذ زمن المهدي. وقد صرح المنصور بذلك كما في نص المـراكشي اعلاه وقد كان له في العبيـديين مثـل يحتذى. وعـلى الرغم من هـذه الأحداث هل قامت محاولة تنسيق بين الدولتين؟.

٤ ـ الاتصال بين صلاح الدين الايوبي والمنصور الموحدي:

ان المصادر لم تذكر من أمر محاولات التنسيق بين الدولتين سوى امر واحد بعد عام ٥٨٥ هـ ، وقد جاءت المبادرة فيه من صلاح الدين، يطلب المساعدة البحرية من الموحدين، فإن استحالت فطرق المساعدة متعددة. وكثير من المصادر مشرقية او مغربية سكت عن هذه القضية. فمن المشارقة ذكرها أبو شامة في روضتيه[3]، وابن خلكان في وفياته[4]، وابن واصل في مفرجه[5]، واورد القلقشندي[6] رسالة في موضوعها. أما المغاربة فقد أشار لها صاحب الاستبصار[7]، وذكرها ابن عذارى[8]،وابن خلدون[9]. فلم

(٣) الروضتين ٢ : ١٧٠، وما بعدها.
(٤) وفيات الاعيان ٦: ١٢.
(٥) مفرج الكروب٢: ٣٦١ ـ ٣٦٢.
(٦) صبح الاعشى جـ ٦ ص ٥٢٧ ـ ٥٣٠.
(٧) الاستبصارص ١٠٧.
(٨) البيان المغرب جـ ٣ ص ١٨٣.
(٩) العبرجـ ٦ ص ٢٤٦.

سكتت بقية المصادر وخاصة المعاصرة عن ذكرها؟ وهل يعني ذلك أن القصة لم تقع وانما اخترعت بأخرة؟ فأبو شامة وهو أول من أورد القضية من المشارقة شك فيها أولاً لأن العماد والقاضي ابن شداد لم يتعرضا لها في كتبهما[1]. فما هو وجه الحقيقة؟.

للاجابة على هذا التساؤل سنعرض لثلاثة امور: الاول وضع صلاح الدين، والثاني المصادر، والثالث نفسية المغاربة وما تركه رد المنصور من اثر فيها.

فصلاح الدين بعد القدس، لم يأمن خطر الصليبيين، وبخاصة ان جي دي لوزينيان لم يزل محاصراً لعكا. كما ان سقوط القدس اشعل ناراً في الغرب، وبدأ اهله يستعدون لحملة ثالثة. فمنذ عام ٥٨٥هـ بدأت أنباء تلك الاستعدادات تصل الى صلاح الدين[2]. وقد أزعجته تلك الأخبار، فشرع يوفد الرسل ويبعث الكتب الى مختلف الجهات[3]. وبلا ريب ان صلاح الدين ارسل لملك المغرب ـ لسببين اثنين ـ رسولاً ضمن رسله للأمراء المختلفين: اولهما ان الموحدين كانوا يملكون اسطولاً قوياً منذ عهد ابي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن يقول ابن ابي زرع عن يوسف «واقتنى الذخائر، واستكثر من الجيوش والجنود، ومهد البلاد، وطاع له من بالعدوتين من العباد، وضخم الملك.... وكثرت الاموال في ايامه[4]. وقال ابن خلدون عنه «وانتهت اساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد فيما عهدنا[5]». ومما يؤيد هذين القولين ان ملك صقلية هابه وخافه «وأرسل اليه الاتاوة.... وهادنه على ان يحمل اليه في كل سنة مالاً اتفقا عليه[6]». فعليه قد كان

---

(١) الروضتين جـ ٢ ص ١٧٠.

(٢) انظر العماد: الفتح القسى ص ٢١٥ عن معرفة صلاح الدين بتحركات ملك الالمان.

(٣) الفتح القسى ص ٢٣٤؛ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٠٦ وما بعدها.

(٤) روض القرطاس ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٥) العبر جـ ٦ ص ٥٢٨.

(٦) المعجب ص ٢٥٢.

ملك الموحدين شامخاً ذا مال وعتاد وبخاصة في البحر، فاذا استنجد صلاح الدين بأمراء الاسلام فلا غرابة ان يكون المنصور الموحدي في طليعتهم.

وثاني السببين أن صلاح الدين كان يخشى أساطيل الفرنجة لكثرتها، ولما تحمله من مدد: عتاداً ورجالاً ومؤناً. وجزء من هذه الاساطيل يمر بمضيق جبل طارق فعلى الأقل بامكان الموحدين وقف ذلك بسدّ المضيق لهذين السببين أرجح ان وضع صلاح الدين وحال الموحدين كان يستدعي طلبه المساعدة منهم. ولكن هذا لا يكفي في اثبات مثل هذه القضية. فلننظر في قضية المصادر مشرقية ومغربية. لقد ذكرنا ان العماد والقاضي والفاضل لم يذكرا الأمر في كتبهما وهما من المعاصرين، وعنهما استقى أبو شامة كثيراً من مروياته، فلم تجاهلا الأمر؟ يبدو أن في امر ارسال المبعوث خلافاً بين رجال البلاط الايوبي، وكان صلاح الدين بدمشق وبعث بهذا الرأي لهم بالقاهرة. وكان من رأي القاضي الفاضل عدم إيفاد مبعوث، وان كان ولا بد فلا يخاطب أمير الموحدين بلقب الخلافة. ومن رجال البلاط من كان يرى غير ذلك. ونمى الخبر لصلاح الدين، فأنب القاضي على ذلك، ودافع القاضي الفاضل عن نفسه في رسالة لصلاح الدين، حفظها لنا أبو شامة، يوضح فيها أنه ليس بكاره لسفر الرسول[1] ولكنه يرى مخاطبتهم بالأمر تعريضاً لا تصريحاً، لأن الكتابة تقيد، وان تليت في منابر المغرب اعتبر ذلك خلعاً لطاعة العباسيين[2]. فهل هذا الخلاف ـ الذي انتصر فيه رأي القاضي الفاضل في طريقة المخاطبة، ونتج عنها فشل الرسول في مهمته، كما سنوضح بعد قليل ـ هو السبب في أهماله للموضوع وجاراه العماد في ذلك؟ اني اميل لهذا الرأي وخاصة ان ابا شامة أجهد نفسه في البحث عن وثائق في الموضوع، وحفظ لنا أربع رسائل: الاولى من صلاح الدين لرسوله ابن منقذ والثانية للخليفة الموحدي ، والثالثة لابن منقذ بالمغرب يستعجله والرابعة من القاضي

(١) الروضتين جـ ٢ ص ١٧٤.
(٢) الروضتين جـ ٢ ص ١٧٤.

الفاضل لصلاح الدين يشرح موقفه من بعثة ابن منقذ[1]. وحفظ ابن واصل رسالة من صلاح الدين الى ابن منقذ بالمغرب يستعجله[2]. وعند القلقشندي رسالة صلاح الدين إلى ملك المغرب[3]. فاذا اتضح لنا موقف المشارقة فما بال المغاربة؟.

ان صاحب الاستبصار عاصر الحدث وشاهد رسول صلاح الدين[4]. ولكن المغاربة عندما يذكرون القضية يحملون الأحداث إجمالاً فلا يفصلون شيئاً[5] ويبدو لي أن مرد ذلك للرد السلبي الذي بعث به المنصور أي أن المغاربة نظروا للموضوع في إطار كرامتهم. فكيف يُسْتَنْجَدُون فلا يُنْجدون إخواناً لهم في الدين، على قوم كافرين ؟! ولهذا استوت نظرة من كتب في ظل الموحدين ومن جاء بعدهم من المرينيين. وخير دليل على ذلك ما ذكره ابن خلدون وانفرد به عن سائر المصادر من ان المنصور ارسل اسطولاً فيها بعد ذبَّ به عن سواحل الشام[6]. وقد لا يكون الامر الا مبالغة، فكأني بابن خلدون ـ وقد كتب في المشرق ـ يهدف بذلك الى الاعتذار للمشارقة عن تقصير المغاربة. ولعل هذا يفسر عدم اشارة عبد الواحد المراكشي للأمر وقد كتب في المشرق.

ان وضع صلاح الدين، وحال الموحدين، والوثائق التي ذكرت ومواقف من لم يذكر، كلها أسباب تجعلني أقول بحدوث الطلب. فما هو موضوعه؟

ان الخطاب الذي حمله عبد الرحمن بن منقذ من صلاح الدين الى المنصور الموحدي، شرح حال مسلمي الشرق، وكيف انهم يذبون عن دار الاسلام وما أحرزوا من انتصارات، لكن الغرب المسيحي بدأ يمد محاربيه

(١) نفس المصدرجـ ٢ ص ١٧٠ ـ ١٧٩.
(٢) مفرج الكروبجـ ٢ ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.
(٣) صبح الاعشىجـ ٦ ص ٥٢٧ ـ ٥٣٠.
(٤) الاستبصارص ١٠٧.
(٥) نفس المصدرص ١٠٧؛ ابن عذارى: البيان المغرب جـ ٣ ص ١٨٣.
(٦) العبرجـ ٦ ص ٢٤٦، (دا رالكتاب اللبناني) جـ ٦ ص ٥١٤.

في المشرق بالرجال والعتاد وبخاصة السفن، فانتصار فرنجة الغرب لمسيحيي الشرق يوجب على مسلمي المغرب مثل ذلك بالنسبة لاخوانهم في المشرق، ولا سيما إمدادهم الاساطيل، وعندهم منها العدد الكبير. وفي الخطاب اشارة للمضايق وكيف ان الفرنجة يصلون للشرق مجتازين بها كأنما يطلب سدها في وجههم، ويستطرد الخطاب فيقول عن نصارى الغرب «فآجابوهم رجالاً وفرساناً وشيباً وشباناً.... وبرا وبحراً.... وخرجت لهم عدة ملوك.... ومنهم ملك الالمان.... وجلب الكفار إلى المحصورين بالشام كل مجلوب.... فعدد مراكبهم كبير.... كان المتوقع ان يمد غرب الاسلام المسلمين بأكثر مما امد به غرب الكفار الكافرين فيملأها عليهم جواري كالأعلام.........». الى ان يقول «ولولا احتجاز مقيمهم بالخنادق واجتياز واصلهم بالمضايق لكان لنا ولهم شأن[1]». فالامر يعود للاساطيل والمضايق بالدرجة الاولى. ولما تأخر ابن منقذ أصبح الطلب يشمل ما هو أقل شأناً من الأساطيل، فقد قال «وان كانت دون الأسطول موانع: اما من قلة عدة او من شغل هنالك بمهمة او بمباشرة عدو ما تحصن منه العورة.... فالمعونة ما طريقها واحد.... تكون تارة بالرجال وتارة بالمال[2]».

اما المخاطبة فانها تنعت المنصور الموحدي في الروضتين بالقاب غير رسمية ولكن فيها مظاهر التبجيل والاحترام مثل «واصل الاصالة، ورأس الرياسة، ونفس النفاسة، وحكم الحكم، وعلم العلم، وقائم الدين وقيمه، ومقدم الاسلام ومقدمه، ومقتضى دين الدين، ومثبت المتقين على اليقين، ومعلي الموحدين على الملحدين، ادام الله له النصرة[3]». وتجيء عند القلقشندي بأمير المؤمنين، غير ان الرسالة تكرر مخاطبة المنصور بلفظة سيدنا دون ذكر الامرة[4]. فهل كتب صلاح الدين رسالتين وكانت رسالة

(١) الروضتين جـ ٢ ص ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٢) نفس المصدر جـ ٢ ص ١٧١.
(٣) نفس المصدر جـ ٢ ص ١٧١.
(٤) صبح الاعشى جـ ٦ ص ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩.

القلقشندي الثانية في الترتيب اعتذاراً عن أسلوب الاولى؟ نستبعد هذا الرأي لأن تاريخ رسالة القلقشندي سنة ٥٨٥ هـ ورسالة الروضتين تاريخها ٥٨٦ هـ فلا يجوز ان يخفض صلاح الدين في الرسالة الثانية من رفع مقامه في الرسالة الاولى وهو في اشد الحاجة إليه. ولكن يبدو لي أن الامر كما ذكره ابو شامة فالمنصور لم يخاطب بامرة المؤمنين وقد وضّح القاضي الفاضل سبب ذلك في خطابه لصلاح الدين.[١] هذا بالاضافة إلى أن الرسالة لا تمضي في مخاطبة المنصور بأمير المؤمنين وانما تخاطبه فقط بلفظ سيدنا. واذا قابلنا هذه الرسالة التي يوردها القلقشندي برسالة اخرى من صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء ببغداد نجد لقب امير المؤمنين يتكرر[٢] وعلى هذا فربما كانت الرسالة من صنع القلقشندي نموذجاً للرسائل الصادرة الى خلفاء الموحدين وقد اوردها في هذا الباب. والراجح ان الخطاب كان خلوا من لقب أمير المؤمنين.

والسؤال هو متى كانت سفرة ابن منقذ؟ يفهم من رسالة القلقشندي انها كانت سنة ٥٨٥ هـ؛ ويذكر ابو شامة[٣] وابن عذاري[٤] وابن خلدون[٥] عام ٥٨٦ هـ؛ وابن خلكان[٦] يذكر سنة ٥٨٧ هـ. وقد بينا رأينا في رسالة القلقشندي، ونستبعد رأي ابن خلكان وخاصة ان صلاح الدين بعث رسالة عام ٥٨٦و هـ الى ابن منقذ يستعجله النجدة، ويشرح سير الحرب حول عكا.[٧] أضف إلى هذا أن حالة الحرب تتطلب السرعة، الشيء الذي تؤكده سرعة ابن منقذ في تنقله، فتاريخ خطاب صلاح الدين الذي يأمره فيه بالمسير الى المغرب هو ٢٨ شعبان ٥٨٦ هـ[٨]. وقد صل افريقية في رجب من العام نفسه[٩]، ورغم تكتمه عن الغرض من رحلته فقد قوبل من أبي زيد في افريقية وأبي الحسن في بجاية

(١) الروضتين جـ٢ ص ١٧٤، ١٧٦.
(٢) صبح الاعشى جـ٦ ص ٥٠٦.
(٣) الروضتين جـ٢ ص ١٧٣.
(٤) البيان المغرب جـ٣ ص ١٨٣.
(٥) العبر، (دار الكتاب اللبناني) جـ٦ ص ٥١٤.
(٦) وفيات الأعيان، جـ٦ ص ١٢.
(٧) مفرج الكروب ٢: ٣٦١ - ٣٦٢.
(٨) الروضتين جـ٢ ص ١٧١.
(٩) البيان المغرب جـ٣ ص ١٨٣ وفي الروضتين جـ٢ ص ١٧١ انه وصل طرابلس فى ٢٥ شوال ومكث إلى ٨ ذي القعدة.

بكل إكرام، حسب تعليمات المنصور، وسار حتى نزل فاس في انتظار المنصور لغيابه في الاندلس[1]. ولما طالت مدته أرسل صلاح الدين يستعجله[2]. وحضر المنصور من الأندلس ونزل مراكش لمرضه، ثم قدم فاس محمولاً، وقابل رسول صلاح الدين في المحرم سنة ٥٨٨هـ[3]. وقدم ابن منقذ هدية صلاح الدين للمنصور. وتتألف من «ختمة كريمة في ربعة مخيشة بمسك، ثلثمائة مثقال عنبر، عشر قلائد عددها ستمائة حبة، عود في سفط عشرة أمنان، دهان بلسان: مائة درهم وواحد، قسي بأوتارها: مائة وقوسان، سروج: عشرون، نصول سيوف هندية: عشرون، نشاب ناسج خاص مريش: كبير ومتوسط ضمن صندوق خشب مجلدة: سبعمائة سهم[4]». وبلّغة رسالة صلاح الدين بعد ان استخدم كل مواهبه في مدح المنصور ومما قال فيه:

اليك أمير المؤمنين ولم تزل ... الى بابك المأمول تُزْجَى الرواحل[5]

فغمره المنصور من فيض عطاياه[6]. ويقول السلاوي انه قال له «انما عاطيناك لفضلك ولبيتك «فعلق السلاوي» يعني لا لأجل صلاح الدين[7]» ورغم النوال الشخصي فقد خرج خاسر المهمة[8]. فابن عذارى

---

(١) البيان المغرب جـ٣ ص ١٨٣.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٢ ص ٣٦١ - ٣٦٢.

(٣) الاستبصار ص ١٠٧، ابن عذارى يذكر ذلك في اخبار سنة ٥٨٦ هـ استطردا ويعود ويذكر ان المنصور قدم فاس عام ٥٨٨ هـ.

(٤) النص مضطرب في الروضتين جـ٢ ص ١٨٢ وقابلناه مع ما نقله الشيال في تحقيق مفرج الكروب جـ٢ ص ٥١٠ - ٥١١ وقارن ذلك أيضاً مع ما ورد في العبر (دار الكتاب اللبناني) جـ٦ ص ٥١٤ والاستقصا جـ٢ ص ١٨٢.

(٥) استقصا جـ٢ ص ١٨٣ وقد بلغت القصيدة اربعين بيتاً واعطى عن كل بيت ألف دينار وأبو شامة يجعل لفظه امير المسلمين بدلاً عن أمير المؤمنين جـ٢ ص ١٧٣ وهذا أمر استبعده فابن منقذ من الداعين لمخاطبة المنصور بالأمرة بين رجال البلاط فكيف الحال في حضرته؟.

(٦) البيان المغرب جـ٣ ص ١٨٤.

(٧) استقصا جـ٢ ص ١٨٣.

(٨) الروضتين جـ٢ ص ١٧٠؛ العبر، جـ٦ ص ٢٤٦؛ استقصا جـ٢ ص ١٨٢.

يقول: انما أجمل له القول إجمالاً وأحاله لوزرائه ليشرحوا له التفاصيل[1].

ويزعم ابن خلدون ان المنصور أنجده بعد ذلك وجهز له مائة وثمانين اسطولاً، ومنع النصارى من سواحل الشام[2]. وقد تابعه السلاوي في قوله، غير انهما شككا بقولهما «ويقال»[3]. وهذا الرأى لا نجد له صدى في المصادر المشرقية والمغربية ويصعب علينا الجزم بصحته.

فالمنصور المظهر للشريعة، المجاهد للكفار في الغرب الاسلامي[4]، ما الذي حمله على عدم نجدة إخوان له في الدين، جاءوه سائلين النجدة على أعداء لهم؟؟ لقد علل ابو شامة امتناع المنصور بعدم مخاطبته بلقب امير المؤمنين[5]. وهذا الدافع قد فصلنا القول في بعض جوانبه فيما سبق، ويكفي ان نثبت قول القاضي الفاضل معللاً عدم المخاطبة بالامرة في خطابه لصلاح الدين فيقول «.... بأن الخطاب يكفي، وطريق جحدنا له ممكن، والكتابة حجة تقيد اللسان عن الانكار، ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الاجماع، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه، ولا يحل اتباعه، مرخصين الغالي، منحطين عن العالي، شاقين عصا المسلمين، مفرقين كلمة المؤمنين مطيعين لمن لا تحلّ طاعته، متقلدين لمن لا تصح ولايته[6]». فأمر المخاطبة كان مكان اختلاف، وقد توقع البعض ان تتسبب عدم مخاطبة المنصور بأمير المؤمنين في فشل مهمة الرسول. والواقع ان خلفاء الموحدين كانت في نفوسهم حساسية من بربريتهم فقد تسموا بلقب الخلافة وادعوا نسباً قرشياً[7]. وقد زعموا ان من سبب محنة الفيلسوف ابن رشد انه ذكر في شرحه لكتاب

(١) البيان المغرب جـ٣ ص ١٨٣.
(٢) العبر (دار الكتاب اللبناني) جـ٦ ص ٥١٤.
(٣) حتى؛ تاريخ العرب (مطول) جـ٣ ص ٦٥١؛ استقصا جـ٢ ص ١٨٣.
(٤) الروضتين جـ٢ ص ١٧٤؛ البيان المغرب جـ٣ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٥) الروضتين جـ٢ ص ١٧٤ وتابعه في ذلك السلاوي في الاستقصا جـ٢ ص ١٨٢ وحتى في تاريخ العرب جـ٣ ص ٦٥١.
(٦) الروضتين جـ٢ ص ١٧٥.
(٧) اخبار المهدي ابن تومرت ص ٢١.

الحيوان لارسطا طاليس عند ذكره الزرافة «وقد رأيتها عند ملك البربر» فكان هذا مما أحنقهم عليه[1]. وبلا ريب عندي ان عدم المخاطبة بلقب امير المؤمنين كان من عوامل فشل ابن منقذ في مهمته ولكن ذلك وحده لا يكفي في تفسير امتناع المنصور عن مد يد المعونة.

ويبدو لي ان اعمال قراقوش التي فصلناها من قبل، رغم عدم وجود العلاقة المباشرة بين صلاح الدين وقراقوش، أحفظت صدور الموحدين على الأيوبيين، وكان الايوبيون يعلمون ذلك، فصلاح الدين يذكر لابن منقذ امر ذلك ويعلمه الرد ان سئل اذ يقول: «وان سئل عن المملوكين: يوزبا وقراقوش وذكر ما فعلا في اطراف المغرب بمن معهما من نفايات الرجال الذين نفتهم مقامات القتال، فيعلمهم ان المملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه المماليك والامراء، ولا من المعدودين في الطياشية والأولياء، وانما كسدت سوقهما، وتبعتهما الفاف امثالهما. . . . ولا كان هذا المملوكان ممن اذا غاب احضر ولا ممن اذا فقد افتقد. . . . ومعاذ الله ان نأمر مفسداً بأن يفسد في الارض[2]». ولا ننسَ ان قراقوش قد عاود اعماله ومبعوث الايوبيين موجود بفاس. فلا شك ان الموحدين حسبوا اعمال قراقوش على الايوبيين. وكان هذا من دوافع عدم نجدتهم لما طلبوا من الموحدين النجدة.

بين سنتي ٥٨٦ و٥٨٨ هـ كان المنصور قد خرج من ثوراث وفتن قد ارهقته، بعضها قادها رجال من بيته، وبعضها من فعل ولاته، وكثير منها بفعل تحالف الميورقيين والغز المصريين والعربان الخارجين عن طاعة الموحدين، وقد قدمنا طرفاً من هذا الحديث. اضف الى هذا اغتنام نصارى الاندلس لكل سانحة، فما اشتغل المنصور بأمر من اموره الداخلية إلا وأغاروا على الاندلس. ولما جاء ابن منقذ وجده في شغل شاغل من امر شلب[3]. فكيف الحال إن وزع قواته، وشتت اساطيله، او سار نحو

---

(١) المعجب ص ٣٠٥.

(٢) الروضتين جـ٢ ص ١٧١.

(٣) المعجب ص ٢٨٠؛ وفيات الاعيان جـ٦ ص ٥، روض القرطاس ص ١٤٤.

المشرق؟ وقد صد حدسه، فوقعت الواقعة بعد حين، ولكنه انتصر في الارك على النصارى عام ٥٩٠[١].

رفض المنصور ارسال النجدة لدوافع نفسية، وحزازات سياسية، وموقف داخلي متوتر، وخارجي متربص. اولم يكن صلاح الدين يعلم ان اهل المغرب كانوا في حاجة للجند مثله في المشرق بل أشد حاجة منه؟ يبدو لي ان الاجابة تكمن في المبالغة في قوة اساطيل الموحدين والدعاية الكبرى عنها في المشرق من التجار والحجيج وطلاب العلم وربما من دعاة الموحدين أنفسهم فان لم تذكر المصادر غير حادثين في علاقات الايوبيين بالموحدين، فان العلاقة بينهما اقل ما توصف به هي التوتر الخفي والتربص المستتر، ولم تسعفهم ظروف الصراع الخارجي للاشتباك المكشوف، وبخاصة ان الموحدين كانوا يرون في كل خارج عن طاعتهم، غير متبع لمذهبهم، مجسماً كافراً يحل قتاله وقتله.

٥ ـ الرحلة بين المغرب والمشرق:

هل اثر هذا التوتر في العلاقات بين الدولتين على معاملتهم للعامة من الناس؟ وما هي نظرة العامة هنا وهناك نحو الفريقين؟ لقد ذكر ابن جبير في مواضع مختلفة ان اهل المشرق كانوا يتشوقون لدخول الموحدين الى ديارهم حاكمين[٢]. فهل مرد هذا الشعور لضيق الناس من حملات الصليبيين المتكررة، وتفكك عرى وحدة دولتهم، وتناحر حكامهم فيما بينهم، بينما يسمعون عن قوة الموحدين براً وبحراً؟ ام ان هذا الشعور نتج من دعاية موحدية؟ في رأي قد يكون الامران معاً بالاضافة لأثر التجار والرحالة والحجاج وطلبة العلم المغاربة، مما يصور ان اعداد الوافدين كانت كبيرة حتى تركت هذا الاثر. وقد اوردت كتب التراجم اسماء

---

(١) المعجب ص ٢٨٢، البيان المغرب جـ٣ ص ١٩٣. وما بعدها، غير ان صاحبي الحلل ص ١٣٣ و روض القرطاس ص ١٥١ يقولان كان ذلك عام ٥٩١ هـ.

(٢) رحلة ابن جبير ص ٥٦.

اشخاص غير قليلين وفدوا الى المشرق لدوافع مختلفة: دينية وعلمية وتجارية وسياحية. فمنهم من رجع ومنهم من استقر. وبلا ريب ان استعادة نصارى الاندلس لأجزاء كبيرة منها اثر في الهجرة الى المشرق والاقامة فيه ولا سيما في مطلع القرن السابع بعد هزيمة الموحدين في واقعة العقاب. ويفهم من اشارة لابن حبير أن أعداداً من المغاربة كانوا يقاتلون الصليبيين في الشام الى جنب اخوانهم المشارقة، وقد اخذ منهم أسرى، وقد كان المشارقة يقدمون فداء اخوانهم المغاربة على المشارقة لغربتهم[1]. وقد ساعد على الاستقرار معاملة الايوبيين الطيبة للغرباء، وبخاصة المغاربة، فوفروا لهم المدارس والمستشفيات والقوت والحمامات[2]، وأشرفوا على شؤونهم بانفسهم[3]. ولا يحتجن احد باشارة ابن حبير للضيق والعنت الذي يلقاه المسافر عند الاسكندرية[4]. فقد اشار في مواضع عدة الى ان ذلك لم يتم بمعرفة الحاكمين، وقد اكثر من تمجيد صلاح الدين[5].

وحتى تتأكد مما نزعمه من كثرة رحلات المغاربة للمشرق يكفي ان نقول ان هذه الرحلات انتجت في عصر الموحدين فناً جديداً في الادب الجغرافي هو أدب الرحلات الذي بدأ مع ابن حبير وصاحب الاستبصار، وبلغ الذروة في العصر المريني مع ابن بطوطة والعبدري والبلوي. وقد تعددت اهداف الرحلة الى المشرق، فجمعت الدين والعلم والتجارة. فمن الراحلين من طاب له المقام مثل ابي الخطاب بن دحية واخيه أبي عمر ومحيي الدين بن عربي نزيل دمشق[6]. ومنهم من اقام ردحاً من الزمن فدرّس العلم للمشارقة، واخذ عن العلماء، ورحل. فقد ذكر ابن الابار في التكملة ان ابن الرهبيل ابا جعفر الحسن محمد بن الحسن الانصاري رحل

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٨٠.
(٢) رحلة ابن جبير ص ١٦.
(٣) نفس المصدرص ٢٦/ ٢٧.
(٤) نفس المصدرص ١٣.
(٥) نفس المصدرص ١٤، ١٦، ٢٧، ٣٠، ٥٦.
(٦) وفيات الاعيان جـ ٦ ص ١١.

وحج واقام بالاسكندرية حتى ٥٧٢ هـ ، ثم رجع الى موطنه بجاية. وكان «طلبة الاسكندرية يتزاحمون عليه لسماع التيسير لابي عمرو المقرىء[١]».

وكذا كان حال أبي بكر محمد بن علي بن ياسر الانصاري[٢]. وقد ذكر عن أبي يحي اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع الغاقفي الجياني البلنسي انه رحل الى المشرق سنة ٥٦٠ هـ واستقر بمصر، واتصل بصلاح الدين الايوبي الذي قربه اليه، وكان يكرمه ويشفعه في حوائج الناس، وتوفي بمصر سنة ٥٧٥ هـ وقد الف كتاباً سماه «المغرب في اخبار محاسن اهل المغرب[٣]».

ولم تكن الرحلة وقفاً على المغاربة، فقد رحل مشارقة الى المغرب، وان لم يبلغوا في ذلك عدد المغاربة فقد ذكر ابن خلكان ان الشيخ تاج الدين عبد الله بن حموية شيخ الشيوخ بدمشق رحل الى المغرب. وكتب فصولاً تتعلق بدولة الموحدين، وعنه نقل ابن خلكان بعض خبر واقعة الارك[٤].

فالاحوال المضطربة في منطقة برقة بفعل العربان المتوثبين، والغز المصريين الطامعين، والميورقيين الثائرين، وسيطرة الصليبيين على شرقي البحر الابيض المتوسط؛ والعلاقات المتوترة بين الموحدين والايوبيين، كل ذلك لم يحل دون قيام الصلات بين المشرق والمغرب رحلة في سبيل الحج او التجارة او العلم او السياحة او الاقامة. فجاءت فترة هذه الدراسة فترة اتصال مستمر ورحلة دائمة وعلاقات وطيدة بين الناس وان اختلف الحكام.

---

(١) ابن الابار التكملة تر ٦٩٣.
(٢) نفس المصدر سنة ١٣٨٠.
(٣) نفس المصدر ص ٢١١٢، الحلل ص ٧٨.
(٤) وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٥.



الأسطول المغربيّ على عهد المرابطين والموحّدين والمرينيّين

تشمل هذه الدراسة الفترة الزمنية الممتدة بين سنتي ٤٦٥/١٠٧٢ و٨٦٩/ ١٤٦٥. ففي التاريخ الأول اعلن قيام دولة المرابطين[١] وفي الثاني انتهت دولة المرينين.[٢] وقد تميزت هذه الفترة بما شهدته من زحف اوروبا على دار الاسلام، فمنذ مطلع القرن الخامس/ الحادي عشر اتسع نطاق حملات الاستعادة في اسبانيا ومع ختامه بدأت الحملات الصليبية على المشرق. ولما كان البحر الابيض المتوسط يمثل حلقة الوصل بين طرفي النزاع فان دراسة الاسطول وما كان عليه من قوة او ضعف تسهم في تفهم مجرى الصراع ونتائجه. وسنحصر جهدنا في دراسة الاسطول المغربي خلال

(١) هناك روايات تجعل قيام الدولة المرابطة مع تأسيس مراكش (راجع عبد الواحد المراكشي): المعجب في تلخيص اخبار المغرب القاهرة، ١٩٤٩ م ص ١٠١؛ ابن ابي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، باعتناء تورنبرغ، أو بسالة، ١٨٤٣ - ١٨٤٦ م ص ٨٩. ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر...، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٩ م، جـ ٦ ص ٣٧٩. بينما تجعله روايات أخر مع تلقيب يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين (راجع ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧ م جـ ٤ ص ٢٧: روض القرطاس ص ٢٨٨، وقد اخترت عام ٤٦٥/١٠٧٢ لأنه تاريخ تنازل أبي بكر بن عمر ليوسف تاشفين عن حكم المغرب (أنظر البيان المغرب، دار الثقافة، جـ ٤ ص ٢٣ وما بعدها؛ الحلل الموشية ص ١٥؛ روض القرطاس ص ٨٧). وبعد ذلك شرع يوسف في فتح شمال المغرب الاقصى وتأسيس دولته على أساس الحكم الوراثي.

(٢) الناصري السلاوي: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء دار الكتاب، ١٩٥٥ م، جـ ٤ ص ١٠٠.

هذه الحقبة لأنَّ المغرب تحمَّل العبء الاكبر في محاولات التصدي للزحف الأوروبي في الجانب الغربي من البحر الابيض المتوسط.

وعلى الرغم من ان هذه الفترة الزمنية طويلة، اذ تمتد عبر اربعة قرون، فقد آثرنا الا نحصر دراستنا هذه في حقبة قصيرة منها لأن نظم الفترة كلها متشابهة بل تمثل امتداداً لأصل واحد. فمنذ ان سيطر المرابطون على الاندلس بدأت عملية تزاوج بين المجتمعين المغربي والاندلسي وتأثر المغرب بكثير من النظم التي كانت سائدة في الانـدلس. واتت عملية التزاوج هذه ثمارها في العصر الموحدي اذ استقرت نظم الدولة على نسق قلده من جاء بعدهم. فدراسة الأسطول خلال هذه الحقبة انما هي دراسة مؤسسة واحدة خلال حقبة تمثل وحدة متكاملة.

منشأ الاهتمام بالاسطوْل:

لعله من البديهي ألا يهتم المرابطون والموحدون ثم المرينيون في بداية امرهم بانشاء الاساطيل بسبب أصلهم البدوي وطبيعة حروبهم لتأسيس دولهم. ذلك ان قبائل لمتونة قبائل صحراوية قطنت «ما بين بلاد البربر وبلاد السودان وهم قوم لا يعرفون حرثاً ولا ثماراً». (١) وكان المرينيون بدوا يظعنون من فجيج الى سلجماسة الى ملوية وربما يصلون الى بلاد الزاب. ويصفهم صاحب روض القرطاس بانهم «لا يعرفون الحرث ولا التجارة ولا يشتغلون بغير الصيد وطراد الخيل والغارات». (٢) اما المصامدة فجبليو الحياة.(٣) فمن الطبيعي ان يؤثر البدوي او الجبلي الحروب البرية والا يخوض غمار النزاع البحري إلا اذا اضطرته الضرورة.(٤) ولهذا لم تسع هذه الدول لتعمير اساطيل في دور تأسيسها لا سيما وان نزاعهم مع سابقيهم كان حول المناطق الداخلية. اما الساحل فقد كان يمثل اطراف

(١) روض القرطاس ص ٧٦.
(٢) المصدر ذاته ص ١٨٧.
(٣) العبر جـ ٦ ص ٤٦١.
(٤) انظر شعور يوسف بن تاشفين لما عبر إلى الأندلس لأول مرة في روض القرطاس ص ٩٣.

منطقة هذا الصراع. ولم يستعمل المرابطون او الموحدون اسطولهم في نزاعاتهم المغربية. ولم ترد في المصادر التي بين أيدينا إلا إشارة واحدة عن الاسطول في صراع المرابطين مع الموحدين في المغرب. فقد جهز تاشفين بن علي قطعاً من الاسطول عند مرسى وهران خلال حربه مع عبد المؤمن بن علي لا دعمًا للجيش المقاتل في تلمسان وانما ليهيىء طريقاً للهروب اذا ما اضطر الى ذلك[1].

ومما يؤكد ان طور تأسيس هذه الدول لم يشهد بناء اسطول او استعماله ان المدن الساحلية كانت تفتح بالمحاصرة البرية. فالمرينيون صدوا القشتاليين عن سلا سنة ٦٥٨/١٢٦٠[2] وفتحوا طنجة سنة ٦٧٢/١٢٧٤ وصالحتهم سبتة في العام ذاته مقابل خراج يؤدونه لهم كل سنة [3] من غير ان يستخدموا قطعة بحرية واحدة. بل ان عدم اهتمام المرينين بضم سبتة نهائياً الى دولتهم وقد كانت مركز الاساطيل الموحدية يبين ان المرينيين حتى ذلك الحين لم يتبينوا اهمية الاسطول. والحالة الوحيدة التي ذكر فيها استخدام اسطول في فتح مدينة ساحلية في طور التأسيس كانت سبتة مع يوسف بن تاشفين. فلما استعصت عليه واستصرخه ابن عباد لنجده الاندلس طلب منه اسطولاً لفتحها حتى يؤمن ظهره، وقد أنجده ابن عباد به، فاستولى ابن تاشفين على سبتة سنة ٤٧٧/ بمساعدة بني عباد.[4].

ولكننا نلاحظ ان باعث دول المغرب الثلاث خلال الفترة التي ندرسها لانشاء الاساطيل كان دائمًا بسبب الاوضاع في الاندلس. فالرغبة

---

(١) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، ١٩٦٧، جـ١ ص ٥٧٩ ـ ٥٨٠، ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب (القسم الموحدي) تحقيق هويسى ميراندا، تطوان، ١٩٦٠ م، جـ٣ ص ١٦.

(٢) البيان المغرب (هويس) جـ٣ صض٤٢٦، مؤلف مجهول: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الجزائر، ١٩٢٠ م ص ١٠٣؛ روض القرطاس ص ٢٠١.

(٣) العبر جـ٧ ص ٣٨٥، ابن عبد المنعم الحميري: صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار، باعتناء ليفي بروفنسال القاهرة، ١٩٣٧ م، ص ٧٦ ـ ٨٧؛ الذخيرة السنية ص ٩٨.

(٤) العبر جـ٦ ص ٣٨٢.

في الاستجابة لنداء اهل الاندلس او الجهاد او حب التوسع في الاندلس كانت من العوامل الاساسية التي دفعت المرابطين والموحدين ثم المرينيين للاهتمام ببناء الاساطيل وتعميرها.

لقد شهدت الاندلس منذ ان اضمحلت دولة الامويين في قرطبة في مطلع القرن الخامس / الحادي عشر خلافات شخصية ونزاعات اقليمية، ووجد نصارى اسبانيا المتحفزون في الشمال في اختلاف ملوك الطوائف فرصة اغتنموها فزحفوا على اراضي المسلمين وبلغوا ذروة نجاحهم يوم استطاع الفونسو السادس ان يبلغ جنوب الاندلس غازياً، وهكذا استولت قشتالة على طليطلة (١٠٨٥/٤٧٨) واتخذتها حاضرة، وزحفت أرغون على سر قسطة وحصرتها. فلم يجد ملوك الطوائف وعلى رأسهم المعتمد بن عباد سبيلاً الا الاستنجاد بالقوة المرابطية فتعلل يوسف بفشل احتلاله لسبتة وطلب مساعدة بني عباد البحرية حتى يفتحها ويؤمن ظهره فيسعف الاندلس فلما تم له ذلك جاز الى الاندلس باسطول بني عباد بعد ان نزلوا له عن الجزيرة الخضراء «لتكون رباطاً لجهاده»،[١] واوقف يوسف الزحف القشتالي بهزيمة نصارى اسبانيا في الزلاقة (١٠٨٦/٤٧٩).[٢] وجاز يوسف ثانية سنة ١٠٨٨/٤٨١ غازيا. [٣] ثم جاز ابن تاشفين للمرة الثالثة في عام ١٠٩٠/٤٨٣ ولكن ليقضي على دول الطوائف ويضم الاندلس الى دولته. فما جاء عام ١٠٩٤/٤٨٧ الا واصبحت الاندلس كلها تحت قبضته [٤] ما عدا سرقسطة التي فتحت سنة ١١٠٩/٥٠٣. [٥]

وهنا حري بنا ان نتساءل هل دفع استعصاء سبته ثم الجواز المتكرر إلى الاندلس بالمرابطين للاهتمام بانشاء اسطول لدولتهم؟ تحدثنا رواية

---

(١) العبر جـ ٦ ص ٣٨٢.
(٢) روض القرطاس ص ٩٤ ـ ٩٦: الروض المعطار ص ٨٣ ـ ٩٥.
(٣) روض القرطاس ص ٩٨.
(٤) أنظر احداث ذلك في المعجب ص ١٣٩ وما بعدها؛ روض القرطاس ص ٩٩ وما بعدها؛ العبر جـ ٦ ص ٣٨٣ وما بعدها.
(٥) البيان المغرب (دار الثقافة) جـ ٤ ص ٥٣ ـ ٥٤.

ينفرد بها ابن خلكان ان يوسف بن تاشقين «أخذ في إنشاء المراكب والسفن ليعبر بها «وذلك قبل أن يستصرخه ملوك الطوائف.[1] ولا نستطيع ان نقبل هذه الرواية لاسباب عدة:

أولاً: لم يرد في المصادر التي بين أيدينا أن يوسف قد أنشأ أسطولاً لعبور جنده الى الاندلس منذ جوازه الاول الى جوازه الثالث.

ثانياً: لقد سبق أن أشرنا إلى أن الجواز الاول تمّ بسفن بني عباد.

ثالثاً: يبدو أن يوسف كان يفكر خلال هذه الفترة في مسألة تأمين العبور ولهذا أخذ الجزيرة الخضراء من بني عباد بعد ان تنازلوا له عنها. ولكن ذلك لا يعني انه أنشأ أسطولاً. وأغلب الظن أنه ظل حتى جوازه الثالث يعتمد على سفن ملوك الطوائف. ولعل هذا ما يفسر سر احتفاظه بعلاقات طيبة مع بني عباد أصحاب اشبيلية، وابن صمادح صاحب المرية على الرغم من الخلافات بينهما. يقول المراكشي في شأن علاقة ابن تاشفين بابن صمادح «وكان ممن اختص بأمير المسلمين من ملوك الجزيرة وحظي عنده واشتد تقريب امير المسلمين له: أبو يحي محمد بن معن بن صمادح المعتصم صاحب المرية»[2] وقد كانت المرية ـ كما سنوضح فيما بعد ـ من اهم مراكز الاسطول.

رابعاً: حتى الجواز الثالث لم يسع ابن تاشفين إلى ضم الاندلس ولهذا فلم يخشى ان يمنعه ملوك الطوائف العبور. هذا بالاضافة الى ان شواطىء المغرب لم تكن في حاجة لحماية بحرية إذ انها كانت بعيدة عن ميدان الصراع النصراني الاسلامي.

لهذا نرجح ان اهتمام المرابطين ببناء الاسطول بدأ مع الجواز الثالث وازداد بعده لتأمين عبور الجيوش المرابطية الى الاندلس ولحماية شواطىء

(١) ابن خلدون: وفيات الاعيان وانباء الزمان، تحرير محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٩ م، جـ ٦ ص ١١٢ وقد نقلها المقّرى في نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، بيروت، ١٩٦٨ م جـ ٤ ص ٣٥٤.

(٢) المعجب ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

الاندلس التي ضموها الى مملكتهم.

ونستطيع ان نتبين الارتباط نفسه بين بناء الاسطول والسيطرة على الاندلس مع الموحدين أيضاً. فبالرغم من ان معركة تلمسان ووهـران (٥٣٩/١١٤٥)(١) أثبتت لأهل الأندلس أن نجم المرابطين آفل فهرعوا الى عبد المؤمن وهو محاصر لفاس مبايعين، (٢) وكان بين من وصل اليه علي بن عيسى بن ميمـون وضم قادس إحـدى مراكـز الاسطول المـرابطي للموحدين، (٣) إلا أن هذا القول يجب ألا يبعث على الظن بأن هذا الحدث يمثل وراثة الموحدين للاسطول المرابطي لأن علي بن عيسى عاد وخلع بيعه الموحدين ولم يخضع إلا بعد أن فتح عبد المؤمن مراكش(٤). وبالاضافة الى هذا فان المرية قاعدة الاسطول المرابطي الأولى(٥) لم تفتح إلا سنة ٥٥٢/١١٥٧. ويبدو أن عبد المؤمن لم يفكر في إنشاء الاسطول إلا لما فتح مراكش وشرع يخطط لفتح الاندلس(٦).

وظاهرة الارتباط ذاتها بين نشأة الاسطول والغزو في الاندلس رافقت اهتمام المرينيين بالأسطول أيضاً. فلما استصرخ ابن الاحمر صاحب غرناطة أبا يوسف يعقوب المريني في ٦٧٣/ طلب يعقوب من ابن الأحمر بعض المراسي لتكون مركز انطلاق لجنده؛ (٧) فتجافى له ابن الأحمر عن طريف ورندة.(٨) ومنذ ذلك الوقت اصبحت الجيوش المرينية تعبر إلى الاندلس كلما جدَّ خطب. بل إن المرينيين قد جعلوا لهم جنداً مرابطاً بها

(١)الكامل جـ١٠ ص ٥٨١؛ البيان المغرب (هويسي) جـ٣ ص ١٨.
(٢) المعجب ص ٢١٢؛ ابن الخطيب: تاريخ اسبانيا الاسلامية أو أعمال الاعلام في من بويع قبـل الاحتلام من ملوك الاسـلام، تحقيق ليفي بروفنسـال، بيروت، دار المكشـوف، ١٩٥٦ م ص ٢٦٥.
(٣) العبر جـ٦ ص ٤٨٥.
(٤) المصدر ذاته جـ٦ ص ٤٨٧.
(٥) حركات: النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، الدار البيضاء، ص ٢٠٥.
(٦) راجع ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، السفر الثاني، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، ١٩٦٤ م ص ٢١٤؛ روض القرطاس ص ١٣١.
(٧) انظر خطاب ابن الاحمر ورد يعقوب عليه في الذخيرة السنية ص ١٥٩ - ١٦٢.
(٨) الاستقطا جـ٣ ص ٤٠.

متخذاً من غرناطة مركزاً، وعلى قيادته أحد بني مرين شيخاً للغزاة. [1] غير ان المرينيين لم يهتموا بانشاء اسطول لهم في بداية امرهم ولكنهم تركوا امر تجهيز سفن العبور لعزفيي سبتة. [2] وابتداء من سنة ٦٨٧/ شرع المرينيون في الاشراف على بناء الأساطيل بأنفسهم[3].

وهكذا نلمح أن الدول الثلاث المتعاقبة لم تهتم بأمر الأسطول في بداية أمرها بسبب حياتها البدوية أو الجبلية الأولى بالاضافة الى أن حروبها الأولى كانت برية وما شواطىء المغرب الا أطراف نزاعها الأول؛ بيد أن ظهور المغرب منذ أيام المرابطين كقوة حربية كبرى ألجأ أهل الأندلس إلى الاستنجاد بهم دوما الأمر الذي نبه دول المغرب إلى الأسطول وأهميته وضرورة العناية به. فما هي عدة هذا الأسطول وما هو نظامه وأي دور قام به؟.

العدة:

تعتمد قوة الأسطول على توفر عدته وتنوعها ومن هنا فإن دراسة عدة الأسطول لن تجيء مكتملة إلا إذا درسنا مراكز صناعة سفنه وآلاته التي تعرف بـ« دار الصناعة»[4] أو «دار الصنعة»[5]. غير أن المصادر التي بين أيدينا لا تعطي معلومات عن «دار الصناعة» إلا إننا من الإشارات القليلة استطعنا أن نقف على تعدد هذه الدور في فترة كل دولة. وحري بالذكر أن تعدد دور الصناعة في فترة كل من الدول التي ندرسها إنما يعتمد أساساً على الرقعة الجغرافية التي احتلتها كل منها. فالدولة المرابطية التي استطاعت أن توحد المغرب الأقصى لأول مرة في ظل حكومة مركزية

(١) راجع ابن الخطيب: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تصحيح محب الدين الخطيب جـ ١ ص ٥٤٠، ٤٥٢، وقد عقد ابن خلدون فصلاً طويلاً عن مشيخة الغزاة (انظر العبر جـ ٧ ص ٧٦٠ - ٧٨٨).
(٢) روض القرطاس ص ٢١٠؛ العبر جـ ٧ ص ٣٩٥.
(٣) راجع روض القرطاس ص ٢٢٣، ٢٤٣، نفح الطيب جـ ٤ ص ٢٨٥.
(٤) المعجب ص ٢٢٩.
(٥) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق علوش، رباط الفتح ١٩٣٦م ص ١٢٩.

واحدة امتدت من طنجة شمالاً إلى نهر النيجر جنوباً ومن جزائر بني مزغنة شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً[1] بالاضافة إلى الأندلس، يسر لها ذلك استخدام دور الصناعة التي كانت قائمة منذ عهد أموي قرطبة مثل طنجة وسبتة والمرية وقادس وطريف والجزيرة الخضراء[2] ولا نعرف أنهم استخدموا دورا جديدة أو أصلحوا دوراً أخرى قديمة. وكانت قاعدتهم الأولى هي المرية[3] التي تتمتع بحصانة طبيعية، وتشتمل كمورتها على معدن الحديد[4] وغدت أيام المرابطين «مدينة الاسلام»[5] بفضل ازدهارها البحري التجاري.

وأما الموحدون فقد كان اهتمامهم بالأسطول أكبر من اهتمام المرابطين وساعدهم على ذلك اتساع رقعة دولتهم التي امتدت من طرابلس شرقاً إلى المحيط غرباً ومن حدود غانة وكوكو في الصحراء جنوباً[6] الى جبال الشارات شمالاً. فتيسر لهم استخدام دور الصناعة القديمة المنتشرة في السواحل منذ أيام أمويي قرطبة وعبيديي أفريقية ثم المرابطين. فمن المراسي القديمة التي ظل الموحدون يستخدمونها في بناء سفنهم: طنجة وسبتة وبادس وبلاد الريف ومهدية بني عبيد وتونس ووهران وهنين وعنابة وبجاية وقادس والمرية والجزيرة الخضراء وشلب[7].

---

(١) روض القرطاس ص ٨٧ـ٨٨؛ النظام السياسي ص ٤٣ ـ ٤٤.
(٢) البيان المغرب (هويسى) جـ ٣ ص ٢١، (ط. دار الثقافة) جـ ٤ ص ٦٦، روض القرطاس ص ٩٩؛ العبر جـ ٦ ص ٤٨٥، عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس، القاهرة، ١٩٦٤ م، ق ١ ص ٤٢٠.
(٣) النظام السياسي ص ٢٠٥.
(٤) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٢.
(٥) الروض المعطار ص ١٨٤.
(٦) الاستبصار في عجائب الامصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندرية، ١٩٥٨ م ص ١١١، ١٧٦.
(٧) انظر ابن القطان: نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي، تطوان ص ١٤٨؛ البيان المغرب (ط. هويسي) جـ ٣ ص ٥٧؛ الاستبصار ص ١٣٠، روض القرطاس ص ١٣١؛ الاستقصا جـ ٢ ص ١٤٣؛ المنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، تطوان، ١٩٥٠م ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

ولم يكتف الموحدون بدور الصناعة القديمة بل أنشأوا أخرى جديدة ووسعوا الدور القديمة. فمن النوع الأول أن عبد المؤمن أنشأ المعمورة بحلق البحر على وادي سبو قرب سلا وغدت مركزاً أساسياً لصناعة سفن أسطوله[١]. وبنى يوسف بن عبد المؤمن دار الصناعة في أشبيلية وكانت الأساطيل تخرج منها في مناسبات حربية متعددة[٢]. ومن النوع الثاني سبتة التي وسع المنصور دار الصناعة فيها[٣].

وهناك دور أخرى لانشاء سفن النقل مثل قصر مصمودة والحبلات قرب ملتقى وادي فاس وقد تميزت بصناعة السفن الصغيرة[٤].

وهكذا يظهر لنا اهتمام الموحدين المتزايد بالأسطول من اهتمامهم بدور صناعة سفنه. ويتجلى اهتمامهم بأسطولهم أنهم نقلوا مركز القيادة من الأندلس الى المغرب فمنذ خلافة عبد المؤمن بن علي كانت سبتة مركزاً دائماً للأسطول الموحدي[٥]. كما أصبحت أكثر سفنهم تبنى في الشواطىء الموحدية[٦].

ولما سيطر المرينيون على المغرب الأقصى لم يفلحوا في استعادة أراضي الدولة الموحدية الواسعة سواء في المغربين الأدنى والأوسط أو الأندلس، ولهذا كان اعتمادهم الدائم على دور الصناعة التي في السواحل المغربية مثل سبتة وطنجة وباديس وسلا وانفا ورباط الفتح وبلاد الريف[٧]. ومن دور الصناعة الأندلسية كانوا يعتمدون أحيانا على المنكب

---

(١) راجع المن بالإمامة ص ٢١٤ والمعمورة هي المهدية اليوم.

(٢) انظر البيان المغرب (ط. هويسي) جـ٣ ص ١١٧ - ١١٨، ١٣٢؛ روض القرطاس ص ١٣٠؛ العبر جـ ٦ ص ٥٠٣.

(٣) الحلل الموشية ص ١٢٣.

(٤) العلوم والآداب والفنون ص ٢٥٥.

(٥) انظر البيان المغرب (ط. هويسي) جـ ٣ ص ١١٣، ١١٧ - ١١٨، ٢١٨؛ أعلام (ط. ليقي) ص ٢٧١.

(٦) انظر ما يذكر عن استعداد عبد المؤمن لغزو الاندلس في المن بالإمامة ص ٢١٤؛ وروض القرطاس ص ١٣١.

(٧) روض القرطاس ص ٢٢٣ - ٢٢٤، ٢٤٣، ٤٧٥؛ العبر جـ ٧ ص ٤١٨، ٤٣١.

والحرية والجزيرة وطريف اذ أن حملات الاستعادة قد نشطت في أيام انحلال الموحدين، فاستعاد الأسبان جل قواعد الأندلس و «لجأ المسلمون الى سيف البحر ما بين رندة من الغرب والبيرة من شرق الأندلس نحو عشر مراحل من الغرب الى الشرق وقدر مرحلة أو دونها في العرض ما بين البحر والجوف»[1]. وحتى هذه المراسي القليلة كثيراً ما وقعت في قبضة بني نصر، وفي مثل هذه الحالة لا نشكل مصدراً للسفن المرينية الا في حالات تعاون دولتي بني مرين وبني نصر[2]. ولكن حتى هذا التعاون كثيرا ما افتقده المرينيون عندما يحصر هذه المراسي نصارى اسبانيا أو يحتلونها[3]. وسنحت للمرينيين فرص قصيرة استفادوا منها في استغلال مراسي المغربين الأوسط والأدنى بالاحتلال تارة وبالتحالف تارة أخرى، وقد كان ذلك في عهد أبي سعيد وأبي الحسن المرينيين[4].

وفي الفترة المرينية استمر التقليد الذي بدأ مع الموحدين من جعل مركز قيادة الأسطول في المغرب، غير أنه في الفترة الأولى كانت سبتة تحت حكم العزفيين الذين ارتبطوا بالدولة المرينية ارتباطاً إسمياً فلهذا لم تكن سبتة هي مركز القيادة بل جعل المرينيون من طنجة مركزاً لهم، ففيها كان تجمع الأسطول واستعداده، ومنها كان جوازه[5]، إلا أن سبتة ظلت أهم دار صناعة في الشاطىء المغربي ومنها كانت أكثر سفن الأسطول[6]. ولما ضم أبو سعيد سبتة الى ملكه سنة ٧٢٨ / ١٣٢٨ غدت مركز الأسطول مجدداً ولا سيما في إمارة أبي الحسن[7].

---

(١) نفح الطيب، جـ ١ ص ٤٤٨.

(٢) راجع روض القرطاس ص ٢٢٣، ٢٤٣؛ العبر جـ ٧ ص ٤١٩، ٤٣١.

(٣) روض القرطاس ص ٢٢٣، ٢٦٥ العبر جـ ٧ ص ٤٤٦، ٤٤٧، ٥١٨، ٥١٩.

(٤) المصدران ذاتهما ص ٢٦٧، ٤٥٦ - ٤٥٩؛ جـ ٧ ص ٥٤٣، ٥٣٣ وما بعدها، الاستقصاء جـ ٣ ص ١٣٥.

(٥) راجع روض القرطاس ص ٢١٠، ٢٢٣ - ٢٢٤؛ العبر جـ ٧ ص ٣٩٤، ٤٤٩، ٤٥٤.

(٦) لقد امدت سبتة الاسطول المريني في سنة ٦٨٧/ بخمسة واربعين جفنا بينها امدته بقية المراسي مجتمعة بسبعة وعشرين مركباً (روض القرطاس ص ٢٢٤).

(٧) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٨٦.

وعلى الرغم من تعدد دور صناعة السفن في الفترة التي ندرسها فإننا لا نعلم عدداً ثابتاً لسفن الأسطول في عهد أية دولة من الدول الثلاث التي ندرسها. ولكيما نعطي صورة عن قوة الأسطول أو ضعفه في خلال الفترة كلها فمن الخير أن نستعرض عدد السفن التي استخدمت في الغزوات أو في نقل الجيش.

يقول ابن خلدون أن عدد أسطول المرابطين في المغرب والأندلس بلغ مائة قطعة[1] ويبدو أن عدده كان أكبر من ذلك اذ أن الأسطول الذي استعاد ميورقة من البيزيين وحلفائهم سنة ٥٠٩/ ١١١٦ كان يتكون من ثلاثمائة جفن[2]، ولكن في غزوة صغيرة عام ٥١٥/ ١١٢١ على شواطىء الأندلس كانت سفن الأسطول خمسة وعشرين قطعة فقط[3].

ويبدو أن الأسطول الموحدي كان أكثر عدداً من المرابطي اذ أن عبد المؤمن لما استعد لغزو الأندلس سنة ٥٥٢/ ١١٦٢ أنشأ مائتي قطعة حسب رواية شاهد عيان[4]. وتكون أسطول فتح ميورقة في ختام القرن السادس / الثاني عشر من ثلاثمائة جفن[5] وكثيراً ما كان يدعم الجيش بأسطول حربي يبلغ عدد سفنه سبعين قطعة[6].

ولا نعرف عدد سفن الأسطول المريني. ويبدو أنه كان قليل العدد في بداية الأمر لعدم اهتمام المرينيين بالأسطول في أول عهدهم ففي الجواز الأول ليعقوب بن عبد الحق سنة ٦٧٣ استخدم عشرين جفناً[7]. وأغلب الظن أن العدد تكاثر مع ازدياد الاهتمام بالأسطول. فقد استخدم الأمير

---

(١) العبر جـ ١ ص ٤٥٧.
(٢) عنان ق ١ ص ٧٧ نقلاً عن مخطوط الاكتفاء.
(٣) البيان المغرب (ط. دار الثقافة) جـ ٤ ص ٦٦.
(٤) المن بالإمامة ص ٢١٤ وانقلب هذا العدد في مصدر متأخر إلى اربعمائة قطعة (انظر روض القرطاس ص ١٣١).
(٥) الروض المعطار ص ١٨٩.
(٦) مثلاً أنظر الكامل جـ ١١ ص ٢٤٢، جـ ١٢ ص ١٤٧؛ النويري؛ نهاية الارب (القسم التاريخي)، طبعة جسبار ريميرو، غرانادا، ١٩١٩ م ص ٢١٠ - ٢١١.
(٧) العبر جـ ٧ ص ٣٩٥.

نفسه اثنتين وسبعين قطعة سنة ٦٧٨[١]، وفي سنة ٦٨٤ أعد على عجل ستة وثلاثين جفنا غزوانية ليحمي جواز جيشه من الأندلس إلى المغرب[٢]. ويبلغ عدد الأسطول منتهاه في العصر المريني مع أبي الحسن إذ يحدثنا ابن الخطيب أن أبا الحسن جاز في سنة ٧٤١ في مائة وأربعين جفناً[٣] غير أن ابن خلدون يقول أن هذا الأسطول اشتركت فيه أساطيل موحدي تونس[٤] ويبدو أن توسع أبي الحسن في المغربين الأدنى والأوسط واستخدامه لمراسي المنطقتين وفرّ له عدداً كبيراً من السفن إذ يروي المقرّى أن أسطوله الذي أراد به الرجوع من تونس كان يتكون من ستمائة سفينة[٥]. وعلى الرغم من المبالغة في الرقم فإنها تنبىء عما بلغه عدد الأسطول المريني في إمارة أبي الحسن من كثرة. وقد جدد أبو عنان الأسطول بعد نكبة أبي الحسن في القيروان[٦].

من كل ما سبق يتضح لنا أن عدد سفن الأسطول تحكمت فيه عدة عوامل: مثل طبيعة منشأ الدولة وحالها اتساعا وانكماشا ثم سياستها في الأندلس ومدى توسعها هناك والتزامها بالدفاع عن تلك الأرض في وجه المد النصراني المتزايد في سعيه لاستعادة الأندلس من المسلمين.

وأما عن نوع السفن فلا نملك تفاصيل وافية عنه في الفترة المرابطية ويبدو أن أغلب الأجفان في العهد الموحدي والعصر المريني كانت غزوانية أو غزوية[٧]. ونلاحظ أن الموحدين استخدموا الشيني والشلندي[٨]

(١) روض القرطاس ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.
(٢) المصدر ذاته ص ٢٤٣ ؛ العبر جـ ٧ ص ٤٣٢.
(٣) اللمحة البدرية ص ٩٢.
(٤) العبر جـ ٧ ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤.
(٥) نفح الطيب جـ ٦ ص ٢١٤.
(٦) انظر تحفة النظار (ط. القاهرة ١٩٥٨) جـ ٢ ص ١٨٥.
(٧) البيان المغرب جـ ٣ ص ١٣٢ ؛ روض القرطاس ص ٢٤٣ ؛ اللمحة البدرية ص ٩٢.
(٨) الكامل جـ ١١ ص ٢٤٢ ؛ نهاية الارب ص ٢١٠ ـ ٢١١.

والغراب والشختاتير[1] والمراكب والمسطحات والحراريق والزوارق[2]. فالمراكب والشلنديات للنقل، والشونات مراكب كبيرة تنصب فيها أبراج للدفاع، والحراقات هي التي تحمل المنجنيقات التي ترمي بالنفط المشتعل على العدو للهجوم. والطرادات سفن صغيرة سريعة، والغراب والشختاتير للحركة السريعة. ولا نعرف نسب توزيع هذه الأنواع، إلا في حالة واحدة أمدنا بها ابن عبد المنعم الحميري عن أسطول فتح ميورقة حيث ذكر أنه كان يتكون من ثلاثمائة جفن منها سبعون غراباً وثلاثون طريدة وخمسون مركباً كباراً وسائرها قوارب منوعة[3]. ومن هذا الاحصاء يتضح أن سفن الحركة السريعة كانت أغلب عند الموحدين. ويبدو أن الشيء ذاته كان عند المرينيين اذ أن أكثر سفن أسطولهم كانت من الغربان[4]. وفي العصر المريني ورد ذكر الطريدة والشيطي والشيني والقارب والقرقورة[5].

ولا تختلف أسلحة الأسطول عن أسلحة الجيش. فقد استعمل غزاة البحر المجانيق والسلالم والمساحي والفؤوس والمعاول والرقائق والحبال والدروع والسيوف والرماح والبيضات والأتراس والقسي والنشاب[6].

ونجهل لباس الجند البحرية ولا نعرف هل اتخذوا لباساً متميزا عن لباس الجيش.

---

(1) رسائل موحدية ص ١٢.
(2) العلوم والآداب والفنون ص ٢٥٥.
(3) الروض المعطار ص ١٨٩.
(4) مفردها غراب، أنظر روض القرطاس ص ٢٢٥. وقد كلف ابن ابي حجلة بذكر الغربان المرينية في شعره (انظر منطق الطير مخطوط الخزانة الملكية؛ الرباط، رقم ١٩١٠ وقد دلني على ذلك الاستاذ محمد المنوني فله الشكر الجزيل).
(5) راجع: مخطوط منطق الطير (انظر الحاشية السابقة)، تحفة النظار، جـ٢ ص ١٣٦، ابن الخطيب نفاضة الجراب (مخطوط الاسكوريال رقم ٢٧)، جـ ٢ ص ٦١؛ إبراهيم بن الحاج النميري، فيض العباب (مخطوط المكتبة الملكية - الرباط - رقم ٣٢٦٧) ص ١٢٧-١٣٣؛ الاستقصاء جـ ٤ ص
(6) الروض المعطار ص ١٨٩، روض القرطاس ص ٢٣٦.

التنظيم:

كان أمير المسلمين المرابطي والمريني والخليفة الموحدي يمثلون السلطة العليا في الدولة وهم الذين يأمرون بتعمير الأساطيل وإجرائها وتوجيهها الى الغزوات[1]. بيد أن أمراء المسلمين والخلفاء لم يباشروا القيادة العملية للأسطول طوال الفترة التي ندرسها، وانما أفردت القيادة العملية في خطة قائمة بذاتها. ويسمى متوليها في العصر المرابطي «قائد البحر»[2]. أو «قائد الأسطول البحري»[3] ومركزه المرية أو قادس. ويدعى القائد العام للأسطول الموحدي «قائد أساطيل البحرين»[4] ومركزه سبتة. ويبدو أن الاستعمال استقر في العصر المريني على ما كان جاريا في العهد المرابطي من اطلاق «قائد البحر» على القائد العام للأسطول. ويسمى «الملند»[5].

وفي الفترة المرابطية كان يطلق على قواد المراسي كلمة قائد مضافا اليه مركز قيادته فالقائد أبو السداد كان يسمى بـ «قائد دانية»[6]. وفي العهد الموحدي يطلق عليه «صاحب امارة البحر»[7].

ونلاحظ أن المرابطين الذين اتخذوا الأندلس مقراً لأسطولهم جعلوا قيادة أسطولهم في أسرة أندلسية هي أسرة بني ميمون، فقد اشتهر منهم بقيادة الأسطول المرابطي أبو عبد الله أحمد بن ميمون وابن أخته علي بن عيسى[8] ولب بن ميمون[9] ومحمد بن ميمون[10] والقائد الوحيد الذي

---

(١) راجع البيان المغرب (ط. هويسي) جـ ٣ ص ١١٨، ١٤٥، (ط. دار الثقافة) جـ ٤ ص ٦٢، ٦٦؛ روض القرطاس ص ٢٦٢، ٢٧٥.

(٢) انظر العبر جـ ٦ ص ٣٨٩؛ نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٧.

(٣) البيان المغرب (ط. دار الثقافة) جـ ٤ ص ٦٢، ٦٦.

(٤) المصدر ذاته (ط. هويسي) جـ ٣ ص ٢٣٤.

(٥) العبر جـ ٧ ص ٦١٤. وأنظر المقدمة أيضاً.

(٦) عنان: ق ١ ص ٧٧ نقلاً عن مخطوط الاكتفاء.

(٧) نظم الجمان ص ١٤٨.

(٨) البيان المغرب (ط. هويسي) جـ ٣ ص ٢١؛ العبر جـ ٦ ص ٣٣٠ - ٤٨٥؛ نفح الطيب جـ ٦ ص ١٦٧.

(٩) العبر جـ ٦ ص ٣٨٩.

(١٠) البيان المغرب جـ ٤ ص ٦٢، ٦٦.

اشتهر ونعرف أنه لا ينتمي الى بني ميمون هو ابن تفرتاش فاتح الجزر الشرقية[1].

أما الموحدون الذين اشتهروا بتنظيماتهم الحزبية الدقيقة التي هيمنت على كل الخطط ذات النفوذ السياسي الفعلي فقد وكلوا في طور ازدهار الدولة (٥٥٨ ـ ٦١٠/ ١١٦٢ ـ ١٢١٣) قيادة «أساطيل البرين» في الغالب لعناصر من غير طبقات الموحدين. ويبدو أنهم وقد عاشوا في بداية حياتهم في جبال درن بعيداً عن البحر ولم تكن لهم خبرة بالعمل العسكري البحري مثلهم مثل سلفهم المرابطين الصحراويين فأسندوا قيادة أسطولهم للعناصر التي عملت فيه من قبل مثل بني ميمون الذين كانوا قادة الأسطول المرابطي[2]. وبني مردنيش مثل غانم وأبي العلا[3]، أو عناصر كسبت خبرة خاصة فاستخدموها لكفاءتها مثل أبي العباس الصقلي الذي عمل في أسطول صقلية ردحاً من الزمن ثم انضم للموحدين[4].

ويبدو أن الموحدين كانوا يخططون لاسناد خطة الأسطول للرجال من «الأشياخ» وهذا ما يفسر استخدام عبد المؤمن ثم يوسف ابنه أحد الأشياخ الموحدين في قيادة الأسطول فقد عين عبد المؤمن أحد «أهل خمسين» وهو عبد الله بن سليمان. ثم عين يوسف بن عبد المؤمن أحد أبناء «أهل الدار» وهو عبد الله بن اسحاق بن جامع. ولما جاءت خلافة المنصور، وكان الموحدون قد اكتسبوا خبرة عملية في العمل العسكري البحري، بدأ الأشياخ من الموحدين يكونون العنصر الغالب في قيادة الأسطول، مثل بني

---

(١) عنان: ق ١ ص ٧٧ نقلاً عن مخطوط الاكتفاء؛ العبر جـ ٦ ص ٣٨٧ غير ان ابن خلدون يسميه «بان تامر طست».

(٢) عنهم انظر الحلل الموشية ص ١٢٩؛ نهاية الارب ص ٢٠٣.

(٣) راجع البيان المغرب (ط. هويسي) جـ ٣ ص ١١٢؛ اعلام (ط. ليفي) ص ٢٧١؛ العبر جـ ٦ ص ٥٠١.

(٤) البيان المغرب جـ ٣ ص ١١٧ ـ ١٣٢؛ روض القرطاس ص ١٣٠؛ العبر جـ ٦ ص ٥٠٣.

حـامع[1] وبني إبـراهيم الهزرجي[2] وأشخـاص من كـومية مثـل ابن عطوش[3] وابن عبد الله بن عبد السلام[4] وعبد الله بن طاع الله[5] وابن زكريا بن مزاحم[6]. بيد أن هذا التحول لا يعني أن العناصر من غير الموحدين قد أبعدت فقد ذكر من بين القادة أحد بني ميمون[7] وأبـو العباس الصقلي[8].

ومما يدلنا على اتجاه تنظيمات الموحدين للسيطرة على قيادة الأسطول أن طبقة الطلبة أصبحت منذ خلافة عبد المؤمن هي المسيطرة على قيادة وحدات الأسطول، فهم المشرفون على الوحدات، وهم الذين يعـدونها ويقودونها، ويسمون بطلبة الأسطول[9] بعد أن أعدهم عبد المؤمن اعدادا خاصا سيجيء شرحه.

ومما يلفت النظر في الادارة الموحدية أن بني عبد المؤمن منذ اعلان الحكم الوراثي (٥٤٩ / ١١٥٥) أصبحوا يولون «السادة» من بني عبد المؤمن الخطط التنفيذية الكبرى مثل قيادة الجيوش وحكم الولايات، ولكننا في الأسطول لم نجد بين القواد إلا «سيداً» واحداً وهو أبو العلا إدريس ابن يوسف بن عبد المؤمن، وقد كانت لـه خطة الأسـطول في خلافـة الناصر[10]. وهذه الظاهرة تبعث على الظن بأن بني عبد المؤمن لم يجعلوا

(١) انظر عنهم رسائل موحدية ص ١٧٧؛ البيان المغرب (ط. هويسي) جـ ٣ ص ٤٩، ١٥٠، ١٥٧؛ العبر جـ ٦ ص ٥٠٧، ٥١٦، ٥٢٦.

(٢) راجع عنهم البيان المغرب (ط. هويسي) جـ ٣ ص ١٥٧، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢١، العبر جـ ٦ ٥١٦، ٥١٨.

(٣) البيان المغرب (ط. هويسي) جـ ٣ ص ١٤٩؛ العبر جـ ٦ ص ٥٠٧.

(٤) البيان المغرب (ط. هويسي) جـ ٣ ص ٢١٨.

(٥) العبر جـ ٦ ص ٥١٦.

(٦) البيان المغرب (ط. هويسي) جـ ٣ ص ٣٥٠.

(٧) المصدر ذاته جـ ٣ ص ٢١٥، ٢١٦، روض القرطاس ص ١٨٩، العبر جـ ٦ ص ٥١٦.

(٨) البيان المغرب (ط. هويسي) جـ ٣ ص ٤٩ ـ ١٥٠، العبر جـ ٦ ص ٥٠٧.

(٩) راجع رسائل موحدية ص ١٧٣، ١٧٤، ١٧٧.

(١٠) راجع عن أعماله المعجب ص ٣١٤؛ الكامل جـ ١٢ ص ١٤٧؛ البيان المغرب (ط. =

خطة الأسطول من الخطط الرئيسية. فلو اعتبروها كذلك لظهر بين قادة الأسطول عدد من «السادة» بعد إعلان الحكم الوراثي. ومما يقوي هذا الظن أننا لا نجد واحداً من الخلفاء قد قاد أسطولا على الرغم من قيادتهم المتكررة للجيوش. غير أنه ليس هناك ما يبرر هذا الظن لأن القادة من أشياخ الموحدين كانوا إما من قبيلة كومية، أو من الأسر المقرَّبة مثل بني جامع والهزرجي. وربما لم يظهر سادة بين قادة الأسطول خشية البحر، أو لأن بني عبد المؤمن كانوا لا يخشون من الأسطول على ملكهم حتى ولو سيطر عليه أشياع مثلما لو سيطر الأشياخ على الجيش، أو ربما عاد السبب إلى العاملين معا.

أما المرينيون فقد تركوا قيادة الأسطول لأهل الخبرة البحرية خاصة أهل سبتة. فقد كان أبو عبد الله محمد بن قاسم الرنداجي قائد الأسطول في إمارة يعقوب بن عبد الحق[1]. وعين أبو سعيد سنة ٧١٤ القائد يحيى بن أبي طالب العزفي على مدينة سبتة «وفوض له جميع أمورها وعقد له على أسطولها»[2] وفي حملة تلمسان كان قائد أساطيل أبي الحسن هو محمد البطوي[3]. وفي واقعة الزقاق سنة ٧٤١ كان قائده هو محمد بن علي العزفي[4]. وكان أحمد بن الخطيب قائد أسطول أبي عنان[5]. ولم يرد اسم الشيخ مريني ومن قواده أيضاً محمد بن يوسف الأحمر[6]. الا مرة واحدة في أول امارة أبي سعيد وهو الشيخ أبو علي بن رحو ابن عبد الحق[7].

بعد أن وضحنا العناصر التي كان منها تعيين قادة الأسطول من المفيد

= هويسي) جـ ٣ ص ٢١٦، ٢٣٤؛ نهاية الارب ص ٢٢٩ وقد ورد فيه مرة أخرى باسم ابي زيد (ص ٢٣٠)؛ العبر جـ ٦ ص ٥١٧؛ الروض المعطار ص ١٨٩.

(١) روض القرطاس ص ٢٥٧؛ العبر جـ ٧ ص ٢٣٥ وفي روض الرجراجي.
(٢) روض القرطاس ص ٢٧٦.
(٣) العبر جـ ٦ ص ٥٢٧.
(٤) المصدر ذاته جـ ٧ ص ٥٤٣.
(٥) العبر جـ ٧ ص ٦١٤.
(٦) فيض العباب ص ١٩.
(٧) روض القرطاس ص ٢٧٢.

أن ننظر في التدريب الذي كانوا ينالونه. فبالنسبة للمرابطين لم نجد ما يشير إلى أنهم اهتموا بتدريب قوادهم تدريباً خاصاً، ويبدو أنهم اكتفوا بتعيين أولي الخبرات السابقة. أما الموحدون فقد اهتموا بهذا الأمر منذ أن فتحوا المغربين الأقصى والأوسط، فقد أسس عبد المؤمن مدرسة «للحفاظ» سنة ٥٥٠/ ١١٥٥ ومنها تخرج «طلبة الأسطول»، وفيها نالوا تدريبا عملياً في شؤون البحر سباحةً وتجديفاً[١]. ويبدو أن التربية العملية في شؤون البحر لمن يقومون بعمل في الأسطول استمرت بعد خلافة عبد المؤمن، ويتضح ذلك من أن المنشآت التي أقامها الموحدون اهتموا فيها اهتماماً بالغاً بالبرك الاصطناعية، كما بنو مدرسة في رباط الفتح لتعليم فنون الملاحة[٢]. ولا نعلم هل واصل المرينيون جهود الموحدين في هذا الميدان. ولكن من أسماء قواد أسطولهم يبدو أنهم - مثل المرابطين من قبل - اعتمدوا على أولي الخبرات السابقة.

وأما عن تنظيم الأسطول من حيث وحداته والعناصر المكونة له وكيفية خروجه الى القتال، والطريقة التي يتبعها في معاركه، فالمصادر التي بين أيدينا صامتة عنها ما خلا اشارات مبتسرة عن عرض الأسطول وطريقة القتال في العصر المريني. ومن هذه الاشارات نعلم أن السلطان أو الأمير القائد كان يستعرض الأسطول في طنجة أو الجزيرة الخضراء وقد «يلعبون أمامه كفعلهم في حربهم»[٣]. ثم يتجه الأسطول الى وجهته وقبل المعركة يوعظ الجند ويذكر[٤]. ويصف لنا صاحب روض القرطاس لقاء الأسطول المريني بنصارى أسبانيا قرب جبل الفتح سنة ٦٧٨ فيقول أن المرينيين صفوا أجفانهم أمام أجفان عدوهم مثل السور ثم التحمت السفن وترامى المرينيون في أجفان أعدائهم، واستعملوا السيوف والرماح[٥]. والوصف ذاته

---

(١) انظر عن تربية الحفاظ نظم الجمان ص ١٣٢، ٣٤٠؛ الحلل الموشية ص ١٢٩.
(٢) العلوم والآداب والفنون ص ٢١ نقلاً عن مقدمة الفتح.
(٣) روض القرطاس ص ٢٢٤، ٢٤٣، وقد وصف ابن الحجاج وهو عيان شاهد احدى مناورات الأسطول امام ابي عنان قرب شاطيء بجاية، (انظر فيض العباب ١٢٧ - ١٣٠).
(٤) الاستقصا جـ ٣ ص ٥٢.
(٥) روض القرطاس ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

يورده ابن خلدون عن وقعة الزقاق سنة ٧٤١[1]. وربما كان هذا النسق هو الذي كان سائداً قبل المرينيين فظلوا يستعملونه في قتالهم البحري لأننا لا نعرف أن المرينيين قد استحدثوا أمراً جديداً في خطة الأسطول.

بعد أن شرحنا دوافع الاهتمام بالأسطول وضحنا عدته ونظامه بالقدر الذي وفرته المصادر التي بين أيدينا نتساءل ما هو الدور الذي لعبه الأسطول المغربي خلال هذه الحقبة الزمنية؟.

دور الأسطول:

شهد النصف الثاني من القرن الخامس / الحادي عشر تفوق أساطيل أوروبا الايطالية وسيطرتها على البحر الأبيض المتوسط وصار الأوروبيون الغربيون سادة كورسيكا وسردينية وصقلية وجنوب ايطاليا ومالطة والأقاليم الساحلية في سورية الجغرافية. وخلال هذه الفترة تعرض شمال أفريقية والمناطق الساحلية من الأندلس الى هجمات قوات بيزا وجنوة البحرية التي عظمت خلال هذه الفترة، فهاجموا المهدية عام ١٠٨٧ ويعيد هذا التاريخ فرضت المدن الايطالية على مدينة المرية أتاوة ضخمة[2]. وفي نفس الوقت كانت الدول المرابطية تبسط سلطانها على الأندلس وتزيد من سلطاتها البحرية. وقد كان دور الأسطول في إمارة يوسف بن تاشفين يقوم بمهمة واحدة أساسية هي نقل الجيوش المرابطية إلى الأندلس، ولكن في إمارة علي بن يوسف بدأ الأسطول يلعب دوراً بحرياً كبيراً فبعد أن ضم المرابطين سرقسطة الى دولتهم ٥٠٣ / ١١١٠ أصبحوا سادة الساحل الشرقي من الأندلس ولم يبق أمامهم الا السيطرة على الجزر الشرقية التي كان ينتزي بها مبشر بن سليمان، فاغتنم البيزيون والجنويون

---

(١) العبر جـ ٧ ص ٥٤٤؛ الاستقصاء جـ ٣ ص ١٣٥.

(٢) انظر الفصل الذي عقده ارشيبالد لويس عن هذه الفترة في كتابه القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠ ـ ١١٠٠ م) ، ترجمة احمد محمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠ ص ٣٦١ ـ ٣٩٣.

هذه الفرصة وفتحوا هذه الجزر ودخلوا عاصمتها ميورقة سنة ٥٠٨ / ١١١٥[١]. فتوجه الأسطول المرابطي بقيادة تفرتاش الى الجزر الشرقية وفتحها وضمها إلى الدولة المرابطية سنة ٥٠٩ / ١١١٦ بعد أن فرّ البيزيون وحلفاؤهم الجنويون عنها[٢]. ومن ذلك الوقت غدا الأسطول المرابطي سيد الساحل الشرقي من الأندلس وشرع علي بن يوسف في الغارات على اشترويس وجليقية، غير أن القطلونيين بمساعدة البيزيين والبروقنسيين استعادوا الجزر الشرقية في العام نفسه ولكن الأسطول المرابطي استردها مجدداً[٣].

وبالرغم من أن قوة المرابطين البرية في الأندلس قد أصابتها نكسة خطيرة تمثلت في الهزائم أمام الأسبان، ووصلت الهزائم ذروتها بسقوط سرقسطة سنة٥١٢ / ١١١٨[٤]. هذا بالاضافة إلى ثورة الموحدين التي بدأت تشل حركة المرابطين في الأندلس حتى أن ابن رذمير اخترق الأندلس من شمالها إلى جنوبها في سنة ٥١٩ / ١١٢٥ من غير مقاومة تذكر[٥]، أقول: بالرغم من كل هذا فقد كانت هذه الفترة تمثل العصر الذهبي للأسطول المرابطي فحالما استرد علي يوسف الجزر الشرقية طفق يبعث بأسطوله للاغارة على شواطى القطلونيين ومن هذه الغزوات ما ذكره ابن عذاري في سنة ٥١٠ / ١١١٦ م[٦] و ٥١٥ / ١١٢٢ م[٧]. ومما يدلنا على القوة التي كان عليها الأسطول المرابطي أن علي بن يحيى صاحب

---

(١) الروض المعطار ص ١٨٨؛ عنان عصر المرابطين والموحدين ق ١ ص ٧٦ ـ ٧٧.
عصر المرابطين والموحدين،

(٢) عنان: ق ١ ص ٧٧ نقلاً عن مخطوط الاكتفاء.

(٣) أنظر روض القرطاس ص ١٠٥؛ العبر جـ ٦ ص ٣٨٧؛ اشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ م، ص ١٤٢ .

(٤) البيان المغرب (ط. دار الثقافة) جـ ٤ ص ٥٣ ـ ٥٤؛ الروض المعطار ص ٩٧.

(٥) راجع نظم الجمان ص ١٠٩ ـ ١١١؛ البيان المغرب (ط. دار الثقافة) جـ ٤ ص ٦٩ ـ ٧٢؛ الحلل الموشية ص ٧٥ ـ ٧٩.

(٦) البيان المغرب (ط. دار الثقافة) جـ ٤ ص ٦٢.

(٧) المصدر ذاته جـ ٤ ص ٦٦.

المهدية استنجد به لحماية إمارته من غزوات نورمان صقلية. ونتيجة لهذا الاستصراخ غزا الأسطول المرابطي بقيادة أبي عبد الله أحمد بن ميمون صقلية وفتح مدينة نقوطرة في سنة ٥١٦ / ١١٢٣[١].

ولم يدم هذا التفوق البحري طويلاً إذ أنه لما تفاقمت ثورة الموحدين اضطر المرابطون إلى سحب حامياتهم من الأندلس وكثر المنتزون بها[٢] وضرب النصارى جهاتها فأخذوا أريلية[٣] وشنترين وباجة وماردة وأشبونة والمرية وبياسة وجيان وطرطوشة وحصون لادة[٤]، وسنحت الفرصة للنورمان فزحفوا من صقلية واحتلوا مدن الساحل الأفريقي وبلغت سيطرتهم مداها باستيلائهم على المهدية عام ٥٤٣ /١١٤٨[٥]. وكان على الموحدين أن يواجهوا هذه الأخطار المتعاظمة.

ولما قامت دولة الموحدين على أنقاض المرابطين وشرع عبد المؤمن بعد فتح المغرب الأقصى في بناء الأساطيل استعداداً لفتح المغربين الأوسط والأدنى والأندلس بدأ الأسطول الموحدي يلعب دوراً كبيراً طوال عصر ازدهار الدولة، فقد كان الأسطول يدعم الجيش طوال دور الازدهار، وأسهم بنصيب كبير في عمليات التوسع في المغربين الأوسط والأدنى[٦] والأندلس[٧]. وفي أواخر هذا الدور قام الأسطول منفرداً بفتح جزر منورقة ويابسة[٨] وميورقة[٩]. وكان يدعم الجيش إما بحمل الآلات والعدد

(١) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٦٤؛ العبر جـ ٦ ص ٣٣٠ - ٣٣١.
(٢) المعجب ص ٢٠٨؛ الحلل الموشية ص ٩٨ - ٩٩.
(٣) نظم الجمان ص ٢٤٥.
(٤) الكامل جـ ١١ ص ١٢١ - ١٢٢، ١٣٦؛ نهاية الإرب ص ٢٠٣.
(٥) العبر جـ ٦ ص ٣٣١ - ٣٣٢.
(٦) المعجب ص ٢٢٩، الكامل جـ ١١ ص ١٥٨، ٢٤٢؛ الحلل الموشية ص ١٢٩؛ نهاية الإرب ص ٢٠٤.
(٧) رسائل موحدية ص ١١ - ١٣؛ الكامل جـ ١١ ص ١١٥، ٢٢٣ - ٢٢٤؛ نهاية الإرب ص ٢٠٣.
(٨) البيان المغرب (ط. هويسي) جـ ٣ ص ٢١٥ - ٢١٦.
(٩) المعجب ص ٣١٤؛ نهاية الإرب ص ٢٣٠؛ العبر جـ ٦ ص ٥١٦؛ الروض المعطار ص ١٨٩.

والرجال[1] وإما بالاشتراك الفعلي في القتال لا سيما في المدن الساحلية[2].

ولقد لعب الأسطول دوراً هاماً في مواجهة نصارى اسبانيا بالاشتراك الفعلي في القتال، فقد قام بدور حاسم في سيطرة الموحدين على طبيرة[3] وقصر أبي دانس[4] وشلب[5]. هذا إلى جانب استخدام الأسطول وسيلة نقل أساسية في حملات الموحدين في الأندلس من المغرب وإليه[6]، ونقل المؤن الى الحصون الأندلسية[7]. كما كان له القدح المعلى في استعادة السيطرة الموحدية على سواحل أفريقية عقب كلّ سيطرة ميورقية في خلافتي المنصور[8] والناصر[9].

وأما حراسة السواحل الموحدية من أي عدوان خارجي فقد كانت من مهمات الأسطول الأساسية[10] ويبدو أن النجاح كان حليفه في هذه المهمة حتى إن أهل طرابلس طلبوا من الناصر قطعة من الأسطول لحماية مدينتهم من هجمات نورمان صقلية[11].

ومما يدلنا على تفوق الأسطول الموحدي في عصر ازدهار الدولة الموحدية أن الصقليين تبينوا هذا التفوق منذ أن أجلاهم الموحدون عن أفريقية فسعوا إلى مصالحتهم، وأبرموا السلم مع يوسف بن عبد المؤمن

---

(١) البيان المغرب (ط. هويسي) جـ٣ ص ٣٩.
(٢) المصدر ذاته ج ـ٣ ص ١٧٩.
(٣) المن بالإمامة ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨.
(٤) البيان المغرب (ط. هويسي) جـ٣ ص ١٨٤.
(٥) الكامل جـ١٢ ص ٥٧؛ وفيات الأعيان جـ٦ ص ٥؛ نهاية الإرب ص ٢٢٣.
(٦) راجع كمثال حطة شنترين في البيان المغرب (ط. هويسي) جـ٣ ص ١٣٢ ـ ١٣٣؛ روض القرطاس ص ١٣٠؛ الروض المعطار ص ١٤٤، ١٤٠.
(٧) المن بالإمامة ص ٢٠١، ٢٠٢.
(٨) رسائل موحدية ص ١٧٣ ـ ١٧٨؛ البيان المغرب (ط. هويسي) جـ٣ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ العبر جـ٦ ص ٥٠٧.
(٩) الكامل جـ١٢ ص ١٤٧؛ البيان المغرب (ط. هويسي) جـ٣ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠؛ نهاية الإرب ص ٢٢٩؛ العبر جـ٦ ص ٥١٧ ـ ٥١٨.
(١٠) أنظر البيان المغرب (ط. هويسي) جـ٣ ص ١١٣، ١١٧ ـ ١١٨: العبر جـ٦ ص ٥٠٧.
(١١) رسائل موحدية ص ٢٥٥.

سنة ٥٧٦ / ١١٨٠[١] وظلوا على علاقة طيبة مع الموحدين حتى انقراض أمر بني عبد المؤمن، ولكنهم كانوا إن وجدوا فرصة لأضعافهم لا يفوتونها، فلهذا نجدهم يساعدون الميورقيين لاستعادة جزيرتهم لما فقدوها في سنة ٥٨١ / ١١٨٥ عقب وفاة يوسف وانشغال الدولة بأحداثها الداخلية[٢].

ومما يصور النجاح الذي أصابه الأسطول خلال فترة الازدهار أن صلاح الدين الأيوبي خلال نزاعه مع المصليبيين طلب من المنصور أسطولاً يرد به عادية الصليبيين عن المشرق، وان استحال هذا فليقفل بوغاز جبل طارق في وجه السفن الصليبية التي تأتي من غرب أوروبا عن ذلك الطريق الى المشرق، غير أن المنصور لم يسعف صلاح الدين بشيء نتيجة لتوتر العلاقات بين الطرفين بسبب مساعدة الأيوبيين لبني غانية وأعمال قراقوش في المغربين الأدنى والأوسط[٣]. وبعيد هذا الطلب استنجد جون ملك انجلترا بالأسطول الموحدي في سنة ١٢١٣[٤].

وما إن اضطربت أحوال الموحدين منذ أواخر خلافة الناصر حتى بدأ الأسطول بالضعف، ولم يكن للأسطول دور يذكر خلال فترة انحلال الدولة. ويحدد ابن خلدون نهاية الأسطول الموحدي بوفاة المنصور واستملاك النصارى للجزر التي في الجانب الغربي من البحر الأبيض المتوسط[٥]. ويبدو لنا أن هذا التاريخ ليس دقيقاً فقد ذكرنا أن الأسطول قام بدور أساسي في القضاء على ثورات الميورقيين في أفريقية في أول خلافة الناصر، كما انفرد بفتح ميورقة في الفترة نفسها. أضف إلى هذا أن

---

(١) الكامل جـ ١١ ص ٤٦٨؛ نهاية الإرب ص ٢٢٠.
(٢) البيان المغرب (ط. هويسي) جـ٣ ص ١٥٦ - ١٥٧.
(٣) راجع عن هذه السفارة الإستبصار ص١٠٧؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة، مطبعة وادي النيل، ١٢٨٧ - ١٣٨٨هـ جـ٢ ص ١٧٠ وما بعدها؛ وفيات الأعيان جـ٦ ص١٢؛ البيان المغرب (ط. هويسي) جـ٣ ص١٨٣؛ العبر جـ٦ ص٢٤٦، وراجع ما ذكرته في البحث السابق حول هذه المسألة.
(٤) أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٤٠١.
(٥) العبر جـ ١ ص ٤٥٨.

استملاك النصارى للجزر الغربية انما كان نتيجة لضعف الأسطول ولم يكن سبباً فيه.

ويبدو لي أن بداية انهيار الأسطول الموحدي قد كانت في سنة ٦٠٧ / ١٢١٦ ففي هذه السنة حطم البرجلوني الأسطول الموحدي عند برشلونة واستولى على حصون بلنسية[١] . فلم نشهد الأسطول الموحدي بعدها في دور يذكر. ولما هزم الجيش الموحدي في العقاب[٢] تبع ذلك انهيار الروح العسكرية فيه. وبوفاة الناصر حدث النزاع على العرش ولم يعد هنالك اهتمام بالنظم والمؤسسات فانهارت، وكان الأسطول من بينها. وكان من نتائج الصراع على العرش أن تقلصت أراضي الدولة فقلت دور الصناعة وجاءت الطامة الكبرى على الأسطول الموحدي لما خرجت سبتة قاعدة الأسطول من أيدي خلفاء مراكش منذ أن ثار السيد أبو موسى أخو المأمون عليه سنة ٦٢٧ / ١٢٣٠[٣] ولحقتها بجاية التي ضمها الحفصيون سنة ٦٢٩/ ١٢٣٢[٤]، بعد أن استقلوا بأفريقية في العام ذاته[٥]. وأغلب الظن أن ضعف السلطة المركزية كان العامل الحاسم في انهيار الأسطول لأنه كان تابعاً للخليفة رأساً. وحتى في دور الازدهار عندما يحدث اضطراب في المركز نجد صداه في الأسطول، فقد كان فتح بني غانية لبجاية في أعقاب وفاة يوسف بن عبد المؤمن حيث ظنَّ بنو غانية أن خلافة المنصور ستغرق بني عبد المؤمن في مشاكل داخلية، فصدق حدسهم فدخلوا بجاية في يسر في غيبة أسطولها[٦].

ومن مظاهر ضعف الأسطول في فترة انحلال الدولة الموحدية أن

(١) البيان المغرب (ط. هويسي) جـ٣ ص ٢٤٣.
(٢) راجع عنها المعجب ص ٣٢١ - ٣٢٢؛ روض القرطاس ص ١٥٧ - ١٥٨؛ البيان المغرب (ط. هويسي) جـ٣ ص ٢٣٦ - ٢٤١؛ الروض المعطار ص ١٣٧ - ١٣٨.
(٣) البيان المغرب (ط. هويسي) جـ٣ ص ٢٧٦.
(٤) المصدر ذاته ص٣ ص ٢٧٥.
(٥) المصدر نفسه ص ١٧١ - ٢٧٢، ٢٧٥ وما بعدها.
(٦) المعجب ص ٢٦٦ - ٢٦٧، البيان المغرب (ط. هويسي) جـ٣ ص ١٤٧، العبر جـ٦ ص ٥٠٧.

الشواطىء المغربية أصبحت عرضة لهجمات الأعداء دون أن يجدوا من يردعهم. فقد حصر الجنويون سبتة عام ٦٣٢ / ١٢٣٥ ولم يقلعوا إلا في العام التالي بعد أن صالحهم أهلها على مال يدفع لهم[١]. وطمع فرديناند الثالث ملك قشتالة في المغرب نفسه، وأحرز انتصارات كثيرة، غير أن وفاته حالت دون إتمام مشروعه[٢]. ومما يدل على خلو المراسي من الأساطيل التي تدفع عنها عدوان الأعداء أن ابن وقاريط زعيم هسكورة لما اختلف مع الرشيد الموحدي والتجأ الى ابن هود طلب منه جفنين ليدخل سلا، وقد كاد أن يحتلها لولا مقاومة الأهالي له[٣]. ويبدو أن الدولة الموحدية في عهد السعيد فقدت أسطولها نهائياً حتى أن السعيد طلب من ملك صقلية في سنة ٦٤٥ / ١٢٤٧ أن يمده بالأساطيل متى وصل البلاد الأفريقية لاستردادها من الحفصيين[٤]. وفي سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠ دخل القشتاليون سلا وخربوها ولم يخرجهم إلا المرينيون بعد قتال برّي[٥].

وهكذا سقطت دولة الموحدين، وقبل أن تسقط اغتنم النصارى الأسبان فرصة ضعفها واستولوا على قواعد الأندلس قاعدة بعد أخرى، فسقطت قرطبة سنة ٦٣٣ / ١٢٣٦[٦] وأشبيلية سنة ٦٤٧/ ١٢٥٨[٧] ومرسية ٦٦٨/ ١٢٦٩[٨] ولم يبق للمسلمين إلا سيف البحر ما بين رندة والبيرة[٩] فجاء المرينيون وكان عليهم مواجهة هذا الزحف الأسباني الذي أوشك أن يصل شواطىء المغرب الأقصى.

ولم يستطع الأسطول المريني أن يلعب الدور الذي لعبه الموحدون اذ

(١) روض القرطاس ص ١٨٣.
(٢) أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٤٤٥.
(٣) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٣٩؛ العبر جـ٦ ص ٥٣٦.
(٤) البيان المغرب (ط. هويسي) جـ٣ ص ٣٨٥ - ٣٨٦.
(٥) المصدر ذاته جـ٣ ص ٤٢٢ - ٤٢٨؛ الذخيرة السنية ص ١٠٣.
(٦) الروض المعطار ص ٥٨؛ نفح الطيب جـ١ ص ٤٤٨.
(٧) الروض المعطار ص ٢٢.
(٨) الروض المعطار ص ٤٨.
(٩) نفح الطيب جـ١ ص ٤٤٨.

كان الأسطول في وضع دفاعي نتيجة لتقلص أراضي الأندلس، فكان على بني مرين أن يُعدوا أسطولهم لتأمين عبور جندهم إلى الأندلس إذ إن النزاع مع الأسبان أصبح حول منطقة بوغاز جبل طارق.

وكان الأسطول المريني يستخدم أساساً في نقل الجيش والمؤن والعتاد من المغرب إلى الأندلس متخذاً من طنجة مكاناً للتجمع، جاعلا من الجزيرة الخضراء مركزا للعمليات في الأندلس، فإلى الجزيرة الخضراء يجوز الجيش ومنها يخرج أو يعاود الغزو[1] ولا سيما وأنها حصينة منيعة ومرساها مشتٍّ مأمون وأيسر المراسي للجواز وأقربها من بر العدوة[2] ولهذا بنى المرينيون مدينةً بالقرب منها أسموها البنية[3] لتكون ركاباً لجهادهم[4].

وقد كانت المعارك الأساسية التي خاض الأسطول المريني غمارها تهدف لتأمين العبور إذا ما قطعه الأسبان كما حدث سنة ٦٧٦ [5] ولكن منذ خلافة يوسف بن يعقوب مفشل المرينيون في تأمين عبورهم إلى الأندلس فقد أخذ النصارى بمعونة ابن الأحمر طريف في سنة ٦٩٠ [6] كما سيطر بنو نصر على سبتة، وفشل يوسف[7] ثم خلفه أبو ثابت في استردادها[8] ولم يفلح المرينيون في استعادتها إلا في سنة ٧٠٩ في إمارة أبي الربيع سليمان [9] غير أنها لم تصف للمرينيين إلا في سنة ٧٢٨ / ١٣٢٨

---

(١) راجع روض القرطاس ص ٢١٠، ٢١١، ٢١٤، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٣١؛ العبر جـ٧ ص ٣٩٨، ٤٢٤، ٤٢٦، ٤٤٦.

(٢) الروض المعطار ص ٧٣ - ٧٤.

(٣) العبر جـ ٧ ص ٣٩٩.

(٤) نفح الطيب جـ ١ ص ٤٤٩.

(٥) روض القرطاس ص ٢٢٣ وما بعدها.

(٦) روض القرطاس ص ٢٤٣ ويجعلها ابن خلدون في فاتح ٦٩١ (العبر جـ٧ ص ٤٤٦ - ٤٤٧).

(٧) المصدران ذاتها ص ٢٦٨؛ جـ ٧ ص ٤٧٣ - ٤٧٥؛ اللمحة البدرية ص ٥٣؛ الإحاطة جـ ١ ص ٥٦٠.

(٨) روض القرطاس ص ٢٧١؛ العبر جـ ٧ ص ٤٩٩.

(٩) روض القرطاس ص ٧٢.

في أواخر إمارة أبي سعيد[1]. ولم يسعف ضم سبتة إلى الدولة المرينية في إمارة أبي سعيد على أنعاش الأسطول وذلك نسبة لانشغال الدولة بالنزاع على العرش بين أبي سعيد وابنه أبي علي، ووجد الأسبان فرصتهم فحاصروا جبل الفتح والجزيرة والمرية وتغلبوا على جبل الفتح سنة ٧٠٩[2] ومنعوا االاجازة إلى الأندلس[3].

ولما خلف أبو الحسن أباه أبا سعيد على حكم الدولة المرينية (٧٣١ - ٧٥٢/) استطاع أن يعيد للأسطول بعض قوته فأعاد جبل الفتح سنة ٧٣٣ وأمن عبور جنده عبر المضيق[4] وشرع في تنفيذ سياسة ترمي لاعادة المغربين الأوسط والأدنى للمغرب الأقصى وقد قام الأسطول بدعم جيشه في سنة ٧٣٦ في فتح وجدة ووهران وهنين ومليانة وسائر المدن الساحلية في المغرب الأوسط[5].

ويلغ أسطول أبي الحسن ذروة قوته يوم هزم الروم في وقعة الزقاق سنة ٧٤١ وحاصر طريف يقصد استردادها ، غير أن القشتاليين بعد دعم البرتغاليين لهم عادوا وهزموا الأسطول المريني في العام ذاته فتملكوا الجزيرة الخضراء[6] ومنعوا الجواز من سبتة[7]. ويبدو أن أبا الحسن أراد الاستنجاد بمماليك مصر فقد كتب خطاباً الى الملك الصالح بن الناصر بن قلاوون يشرح له الكارثة التي حلَّت بأسطوله إذ فقد سبعاً وستين قطعة[8] غير أن رد الصالح كان شبيها بردِّ يعقوب المنصور الموحدي على صلاح الدين، يقول خطاب الملك الصالح: «ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا اليكم عقبان الجياد المسمومة.. وما لنا غير إمدادكم بجنود الدعاء الذي نرفعه

---

(١) العبر جـ٧ ص ٥١٥.
(٢) لعبر جـ٧ ص ٥١٨ - ٨١٩؛ نفح الطيب جـ١ ص ٤٥١.
(٣) العبر جـ٧ ص ٥٣٠.
(٤) العبر جـ٧ ص ٥٣١.
(٥) اللحمة البدرية ص ٩٣؛ العبر جـ ٧ ص ٥٣٣ وما بعدها.
(٦) اللمحة البدرية ص ٩٢؛ الإستقصا جـ٣ ص ١٣٧ - ١٣٨.
(٧) أنظر عن المعرجة العبر جـ٧ ص ٥٤٤ وما بعدها.
(٨) راجع خطاب أمير المسلمين ابي الحسن في نفح الطيب جـ٤ ص ٣٩١ - ٣٩٣.

نحن ورعايانا، والتوجه الصادق الذي تعرفه ملائكة القبول من سجايانا»[1].

ويبدو أن أبا الحسن لم يفقد كل أسطوله إثر هذه الهزيمة إذ إن الأسطول يظهر مع معارك أبي الحسن في تونس سنة ٧٤٧ - ٧٤٨ في عدد ضخم ولكن بعد هزيمة عرب سليم للمرينيين عند القيروان في سنة ٧٤٨ لاذ الأمير أبو الحسن بأسطوله، غير أن الكارثة لحقت به إذ غرقت كل سفنه على ساحل تدلس[2]. ولما خلف أبو عنان أبا الحسن حاول أن يعيد بناء الأسطول، واستطاع أن يخضع تمرد عيسى بن الحسن بجبل الفتح[3]، وبمساندة الأسطول حاول أبو عنان أن يوحد المغرب الكبير مجدداً، ولكن جهوده باءت بالفشل[4]. وبعد أيام أبي عنان لم يرد للأسطول المريني ذكر بل إن بني الأحمر على ضعفهم حاولوا السيطرة على المضيق فاستولوا على الجزيرة الخضراء سنة ٧٨٠ ولكنهم هدموها خوفاً من محاولة الأسبان استردادها [5].

ومنذ عهد أبي عنان وحتى نهاية الدولة المرينية كان المرينيون يخشون أسطول الإسبان والبرتغاليين[6]، فعمدوا الى محاولة الاستفادة من نزاعات نصارى أسبانيا ليستفيدوا من أساطيلهم في رد العدوان[7] فلم يغنِ ذلك شيئاً لأنّ الشواطىء المغربية كانت خالية من السفن التي تدفع عنها أيسر الهجمات. يدلنا على ذلك أن سالم ابن أبي الحسن المريني لما أراد أن ينتزع الملك عقب وفاة أبي عنان في سنة ٧٥٩ أعانه ملك قشتالة بأجفان قليلة دخل بها آزمور ثم تحرك الى أصيلا فدخلها ومنها انطلق الى طنجة وسبتة

---

(١) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٩٧.

(٢) العبر جـ ٧ ص ٥٥٨ وما بعدها خاصة ص ٥٧٤، استقصا جـ ٣ ص ١٧١.

(٣) العبر جـ ٧ ص ٦١٤. وعن جهود أبي عنان أنظر تحفة الأنظار جـ ٢ ص ١٨٥.

(٤) المصدر ذاته جـ ٧ ص ٦١٥ وما بعدها؛ استقصا جـ ٣ ص ٢٠١ - ٢٠٣.

(٥) المصدران ذاتهما جـ ٧ ص ٦٠٨؛ جـ ٤ ص ٥٦.

(٦) العبر جـ ٧ ص ٦٣٣.

(٧) العبر جـ ٧ ص ٦٣٣.

وجبل الفتح ثم سار الى فاس ودخلها سنة ٧٦٠ [١].

وانتهزت البرتغال فرصة الضعف المريني هذه فاحتلت الشواطىء المغربية، واستولت على سبتة سنة ٨١٨ / ١٤١٥ [٢]. وحاول البرتغاليون احتلال طنجة سنة ٨٤١ [٣] ولكنهم تمكنوا من السيطرة على قصر المجاز (أو قصر معمورة أو القصر الصغير) سنة ٨٦٣ / ١٤٥٨ [٤] وأخيرا فتحوا طنجة سنة ٨٦٩/ ١٤٦٤ [٥] وهو العام ذاته الذي سقطت فيه الدولة المرينية.

وهكذا يتضح لنا أن الأسطول المغربي من حيث العدة أو التنظيم أو الدور الذي قام به مرَّ بثلاثة أدوار: دور تكوين مع المرابطين، وفترة سيطرة على غربي البحر الأبيض المتوسط خلال حقبة الازدهار للدولة الموحدية، وأخيراً دور ضعف وانحلال منذ أواخر الدولة الموحدية وحتى نهاية الدولة المرينية.

---

(١) اللمحة البدرية ص ١٠٥؛ الإحاطة جـ ١ ص ٣١٦؛ العبر جـ ١ ص ٦٣٣ - ٦٣٤.
(٢) الإستقصا جـ ٤ ص ٩٢.
(٣) المصدر ذاته جـ ٤ ص ٩٥ - ٩٦.
(٤) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٩٦ - ٩٧.
(٥) المصدر ذاته جـ ٤ ص ٩٨.



انحلال دولة الموحّدين وسقوطها

١ ـ بداية الانحلال:

في رمضان ٥١٥/ ١١٢١ بويع محمد بن تومرت بالمهدية في السوس بالمغرب الأقصى[1]. فاندلعت ثورة أتباعه الموحدين مهددة وجود الدولة المرابطية التي رعاها في القرن الخامس / الحادي عشر عبد الله بن ياسين فكرياً وروحياً وأشادها يوسف بن تاشفين عسكرياً وادارياً. ولم يكتب للمهدي أن يشهد نجاح ثورته والانتصار على المرابطين وخلافتهم على حكم المغرب الا أن ذلك تمّ على يد خليفته الأول عبد المؤمن بن علي يوم دخل مراكش فاتحاً في شوال ٥٤١/ مارس ١١٤٧[2] واتخذها حاضرة

(١) أكثر الروايات على هذا ولكن بعضها يشذ فيذكر ٥١٤ أو ٥١٦ أو ٥١٨ ولا نستطيع ان نسلم برواية من يذكر ٥١٤ لأن ابن تومرت في هذه السنة كان بمراكش، وفي العالم ذاته هاجر إلى السوس، ولا بد أنه بقي في السوس مدة يسيرة حتى اجتمع حوله أهله من هرغة مقتنعين بدعوته ثم أعلن أمره لما أصبح في منعة. وبالنسبة إلى الروايتين الأخيرتين فالأمر لا يعدو ان يكون تاريخ بيعات لما دخلت قبائل مختلفة في الدعوة مما جعل بعض الرواة يخلط بين البيعة الأولى وبيعات لاحقة وتعدد البيعات أمر شائع عند الموحدين للخليفة الواحد في المناسبات المختلفة. راجع نظم الجمان ص ٢٩، ٣٣، ٧٤؛ الحلل الموشية ص ٨٧؛ وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٤٤؛ مفاخر البربر ص ٥٩؛ البيان المغرب جـ ٤ ص ٦٨؛ العبر جـ ٦ ص ٤٦٩.

كل إشارة في هذا الفصل إلى الجزء الثالث من البيان المغرب تعني طبعة هويسي.

(٢) الإستبصار ص ٢٠٢؛ الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ٥٨٣؛ الحلل الموشية ص ١١٤؛ نهاية الإرب ص ٢٠٠؛ البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٣؛ الإحاطة جـ ١ ص ١٩٢؛ مفاخر =

لدولته الجديدة. والسبب في انتصار الموحدين عائدٌ للفكرة والتنظيم. فالفكرة الدينية القائمة على التوحيد المرتكزة على المهدية بعثت حماسة فائقة في نفوس الأتباع فاستهانوا بالمشاق لنشرها واستعذبوا الموت لبسط نفوذها فكانوا طوع البنان ورهن الاشارة لأمامهم ثم لخليفته من بعده. والتنظيم الدقيق أسعف على صهر القبائل المصمودية التي وحدت في بوتقة واحدة حفظت ذاتية القبائل وأسلست قيادها في آن واحد. ولهذين العاملين لم يمض سوى نحو ربع قرن على فتح مراكش حتى كانت الدولة قد امتدت من طرابلس الغرب شرقاً إلى المحيط غرباً، ومن الصحراء الأفريقية جنوبا إلى جبال الشارات في الأندلس شمالا، ونعمت باستقرار وازدهار، ففاقت ما سبقها من دول في المغرب خلال العصر الوسيط عظمة ونفوذاً.

وبوفاة عبد المؤمن عام ٥٥٨/ ١١٦٣ انتهت فترة التأسيس ومع خلفه وابنه يوسف دخلت الدولة في حقبة الازدهار التي استمرت أيام المنصور ومدة يسيرة من خلافة الناصر. وخلال فترة الازدهار أشاعت الدولة العدل وضبطت البلاد حتى إن الراكب يسير «حيث شاء من بلاد العدوة في طرقها من جبلها وسهلها آمناً في نفسه وماله لا يخاف إلا الله أو الذئب[1]». فاتسعت التجارة وتوالت الصناعة وكثر الحرث وعظم العمران. يقول عبد الواحد المراكشي عن أيام يوسف بن عبد المؤمن وابنه المنصور ـ وهو لها معاصر ـ أنها كانت «أعياداً وأعراساً ومواسم، كثرة خصب، وانتشار آمن، ودور أرزاق، واتساع معايش لم ير أهل المغرب أياماً قط مثلها[2]».

ورافق النهضة الاقتصادية وثبة فكرية فقد ازدهرت المعارف وتنوعت بفضل الطابع الفكري للدولة وتشجيع الخلفاء والسادة من بني عبد المؤمن

= البربر ص ٤٥٩ وقد وهم عبد الواحد المراكش وجعله في سنة ٥٣٧ أنظر المعجب ص ٢٠٢.

(١) المن بالإمامة ص ٢٨٦؛ وانظر آراء مقاربة في البيان المغرب جـ٣ ص ٦٥؛ وروض القرطاس ص ١٤٣.

(٢) المعجب ص ٢٥٦.

بما أجزلوا من عطاء لأهل العلم وشادوا من مساجد وأسسوا من مدارس وأقاموا من خزائن للكتب فقد حرصوا على اقتناء النادر منها وبذلوا في سبيل ذلك الأموال، فكثر العلماء في كل فن، الأمر الذي تصوره كتب التراجم التي صنفت في هذه الفترة أو بعيدها فاستوت «الشخصية العلمية للمغرب الاسلامي في صورتها التامة[1]».

واستمرت دولة الموحدين في عز وازدهار حتى نهاية القرن السادس /الثاني عشر، ومع مطلع السابع / الثالث عشر بدأ الهرم يدبّ في أوصال الدولة ومالت شمسها إلى المغيب. ومن الصعوبة بمكان تحديد تاريخ لاضمحلال حضارة أو بداية انحلال دولة، لأن عوامل الانحلال تولد مع عوامل القيام، غير أن مظاهر الصحة والعافية تتغلب عليها، ولكنها تفعل فعلها الذي يزداد أثراً مع مرور الزمن والبعد عن حماسة دور النشأة. ثم تأتي فترة يظهر فيها بوضوح انحدار الدولة من القوة إلى الضعف ومن الشباب الى العجز، ونستطيع أن نعتبر تلك الفترة بدايةً طور الانحلال الظاهري ولكن لا غنى للباحث من تتبع المظاهر والعوامل منذ قيام الدولة لفهم ظاهرة الانحلال نفسها. وقد حددت مصادرنا تاريخ تلك الفترة بوفاة يوسف المنتصر عام ٦٢٠/ ١١٢٣ لأنه يرمز لـ«آخر ضخامة الدولة الموحدية[2]» ومن بعده اضطرب الأمر واشرأب الناس للخلاف [3]. وواضح أن هذه النظرة بنيت على أساس أن النزاع بين الأمراء هو الانحلال، بينما لا يعدو ذلك أن يكون مظهراً واحداً من مظاهره. ويبدو لي أن خير ما يمثل بداية المرحلة ضعفاً وانهزاماً واضمحلالاً الفترة الأخيرة من خلافة الناصر بن المنصور ٦٠٣ - ٦١٠ / ١٢٠٦ - ١٢١٣ ففي عام ٦٠٣/ ١٢٠٦ اتخذ الناصر خطوة أثبتت عجز الدولة عن ادارة رقعة ممتدة

---

(١) ابن شريفة: أبو المطرف ابن عميرة ص ٢٤ وراجع عن الحياة الفكرية نفس المصدر ص ٢٤ - ٢٨، عبد الله كنون: النبوغ المغربي جـ١ ص ١١٠ - ١٧١، محمد المنوني: العلوم والاداب والفنون.

(٢) الحلل الموشية ص ١٣٥.

(٣) المعجب ص ٣٢٩.

الأطراف متباعدة المسافات بمركزية مستحكمة. فلكيا يتخلص من مشاكل أفريقية وثوراتها التي أنهكت قوة الحضرة المادية والبشرية عين والياً على أفريقية بسلطات استثنائية جعلت الوالي مستقلاً بأمرها منفرداً بسياستها[1]، مما عبّد الطريق لسلالة ذلك الوالي فيما بعد للاستقلال بها والانعتاق من سلطة الحضرة. وفي ٦٠٩ / ١٢١٢ هزم الناصر في العقاب أمام النصارى تلك الهزيمة التي كانت السبب في هلاك الأندلس[2]. وأسباب الهزيمة خير ما يصور بداية مرحلة الانحلال ومظاهرها من استبداد وزراء[3] وتمرد أشياخ[4] وإهمال موظفين[5] واختلال في نظام الجيش[6]. وختم الناصر حياته بتعيين ابنه يوسف المستنصر خلفا وعمره ستة عشر عاماً[7]. فتغلب عليه أشياخ الموحدين[8] وبدأ تدخل مراكز القوة في الدولة في أعلى مستوياتها.

وعلى هذا نستطيع أن نعتبر آخر خلافة الناصر بداية مرحلة الانحلال. والظواهر الاجتماعية لا تظهر فجأة بل هي نتيجة تطور خلال مدى زمني يقصر أو يطول، بحسب العوامل المساعدة أو المعوقة، فمن الخير أن نتابع مظاهر الانحلال منذ نشأة الدولة ثم نحلل العوامل الباعثة.

٢ ـ مظاهره:

(أ) الضعف السياسي:

(١) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٢٥؛ رحلة التيجاني ص ٣٦٢؛ العبر جـ٦ ص ٥٨٣؛ الإحاطة جـ١ ص ٣٢٠؛ تاريخ الدولتين ص ١٨؛ المؤنس ص ١٣١ ولكنه في ص ١٢٢ يجعل الأمر في ٦٠٢/ ١٢٠٥ ـ ١٢٠٦.

(٢) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٤١؛ روض القرطاس ص ١٥٩.

(٣) روض القرطاس ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٤) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٤١.

(٥) نفس المصدر جـ٣ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٦) أنظر ما يذكره عبد الواحد المراكشي وابن عذارى عن الاستعداد للمعركة وسيره وتعبئته وخطته في القتال المعجب ٣٢١ ـ ٣٢٢؛ والبيان المغرب جـ٣ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٢.

(٧) المعجب ٣٢٤؛ العبر جـ٦ ص ٥٢٣.

(٨) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٤٣.

نستطيع أن نحدد إطار الانحلال في جبهات سياسية وادارية وعسكرية ورافق ضعف هذه الجبهات ثورات وفتن وتقلص في أراضي الدولة آل إلى سقوطها بعد أن انهار اقتصادها.

ان الضعف السياسي خير ما يتجلى في النزاع على الخلافة بين السادة أبناء عبد المؤمن. فالموحدون منذ قيامهم حتى نهاية دولتهم بالمغرب لم يستطيعوا أن يضعوا نظاماً ثابتاً لتولي الخلافة، والراجح أن ابن تومرت توفي ولم يستخلف أحداً أو يبين طريقة اختياره[1]. أما ما يرويه عبد الواحد المراكشي من أن المهدي أوصى لعبد المؤمن[2] فليس إلا من زعم بني عبد المؤمن[3] تأكيداً لسلطانهم وتثبيتاً لملكهم، وخاصة أن قبيل المهدي - هرغة - كان أول الناكرين لولاية عبد المؤمن المنتهزين للفرص كلما واتت لأخذ الأمر لأنفسهم في عهد عبد المؤمن. فبعد أن نجحت الدعوة وقامت الدولة حاول أخوا المهدي عبد العزيز وعيسى الثورة عام ٥٤٨[4]. ثم حاولاها ثانية بعد عام لما ولىَّ عبد المؤمن عهده لابنه محمد[5].

وهناك ثلاثة مواقف تدعم الرأي القائل بأن المهدي لم يستخلف أحداً أو يبين طريقة اختياره: أولا: كان ابن تومرت يحتذي خطوات النبي حذو القذة بالقذة. وقد مات الرسول ولم يستخلف أحداً أو يبين طريقة اختياره، فان تابع ابن تومرت الرسول في طريقة الدعوة واختيار الأصحاب وأسلوب العمل فلا أقل من أن يسير على هديه في أمر من يخلفه، لا سيما وأن المهدي مات ولم يكن له ذرية. ثانياً: لما توفي المهدي تشوف من بقي

---

(١) نظام الجمان ص ١٣٠؛ وفيات الأعيان جـ ص٤٠٣؛ حلل ص ١١٨.

(٢) المعجب ص ١٩٤ - ١٩٦ ونقل ابن الأثير والنويري هذه الرواية دون أن يصرحا بمصدرهم وفيما يبدو انها عن المعجب فقد عرفاه ونقلا عنه. أنظر الكامل جـ ١٠ ص ٥٧٨؛ نهاية الإرب ص ١٩٦.

(٣) روض القرطاس ص ١١٩.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب جـ٣ ص٢٧/٢٨؛ رسائل موحدية ص ٣٩ - ٤٥ بينما يجعل صاحب روض القرطاس المحاولة من قريب للمهدي يسميه يصلنن روض القرطاس ص ١٢٧.

(٥) رسائل موحدية ص ٤٤.

من العشرة وأهل خمسين للأمر[1]، فلو تمَّ استخلاف المهدي لعبد المؤمن لما حدث نزاعٌ بينه وبين هؤلاء المتشوفين. ثالثاً: ان كتم وفاة المهدي وبيعة عبد المؤمن بيعةَ سرّ، ثم إعلان وفاة المهدي بعد أمد وبيعة عبد المؤمن معها بيعة عامة[2]، يدل على أن الأمر تمَّ باتفاق بعض العناصر بعد وفاة المهدي وانتظروا حتى هيأوا الأذهان لذلك. لهذا لا نستبعد قول من يروي أن المهدي كان ميالاً لعبد المؤمن، وفي مرضه الذي مات منه خصَّ عبد المؤمن بالصلاة، فلما توفي واشرأب من بقي من أهل العشرة وأهل الخمسين للأمر كان حل الأشكال هو تولية عبد المؤمن لأنه غريب عنهم ولسبقه وفضله وميل المهدي اليه[3].

ولما اعتلى عبد المؤمن سدة الخلافة وانتقل بالدعوة من حالة الثورة إلى وضع الدولة والحكم جعل الحكم وراثياً في عقبة فولىّ ابنه محمداً عهده في ٥٤٩/١١٥٤، واستغل عبد المؤمن في ذلك العرب الذين استقدمهم من افريقية بعد غزوة بجاية[4]، وساعده ذكاؤه المتقد وشخصيته النافذة وارادته القوية. وأثار فعله هذا حفيظة هرغة ممثلة في حركة أخوي المهدي اللذين احتجا بقرابتهما للمهدي[5] وعلى الرغم من قضاء الخليفة الأول على حركتهما فقد واجه بعد فترة يسيرة محاولة اغتيال من جماعة من هرغة في عام ٥٥٥/١١٦٠ وهو عائد من غزوة تونس[6]، فاضطر لاستجلاب قبيلته كومية من أحواز تلسمان إلى مراكش في ٥٥٦/١١٦١ لتكون له سنداً وعضداً، فجعلهم ضمن القبائل الموحدية التي انبنى عليها الأمر

(١) روض القرطاس ص ١١٩.

(٢) نظم الجمان ص ١٣٠، ٢٠٧؛ الحلل الموشية ص ١١٨؛ روض القرطاس ص ١٢١.

(٣) روض القرطاس ص ١١٦ - ١١٧، ١١٩ غير أن ابن الأثير وعنه يأخذ النويري يذكر أن الأمر تم باتفاق بين عبد المؤمن وعمر الهنتاني على ان يلي الأمر من بعده، الكامل جـ ١١ ص ٢١١؛ نهاية الإرب ص ٢٠٧.

(٤) الكامل في التاريخ جـ ١١ ص ٢١١: النويري: نهاية الإرب ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٥) رسائل موحدية ص ٤٤.

(٦) المعجب ص ٢٢٣ - ٢٣٤ بينما يردها صاحب روض القرطاس إلى طول غيبة الجند ص ١٣٠.

وقدمهم على سائرها سوى هرغة وأهل تينملل[1]. فهكذا تبدلت الحركة الموحدية لما تسنمت السلطة من الفكرة وقيودها وضوابطها الى الوراثة. فالفكرة التي اعترفت بالواقع القبلي وحاولت أن تذيبه في بوتقة الفكرة وإطارها ارتدت الى القبلية في سبيل دعم هوى الفرد الحاكم الذي لم يجد من ملجأ من القبيلة إلا اليها. وتحول اختيار الخليفة من الشورى إلى التعيين القائم على الوراثة.

وأضاف عبد المؤمن إلى أسس الاختيار عاملاً جديداً قبيل وفاته، ففي مرضه الذي توفي به عام ٥٥٨ خلع ابنه محمداً عن عهده وولاه لابنه يوسف بسبب سوء سيرة الاول وشربه للخمر[2]. وفتح هذا الحادث بابين أثارا مشاكل قادت للنزاع الخطير في جهاز الدولة القيادي: اولاً لم يقر مبدأ وراثة الابن الاكبر لخلافة أبيه، ثانياً: الالتزام الأخلاقي الديني أمر يمكن أن يكون مثار جدل بين القرابة فيدعي كل طامع منهم في الخلافة عدم صلاحيه المختار لها، فتتسع شقة الخلاف، وهذا ما حدث عقب كل اختيار واستخلاف، فما إن توفي عبد المؤمن وبويع لابنه يوسف حتى توقف أخواه أبو محمد وأبو سعيد[3] ولم يرض أخوه أبو الحسن[4]. ويبدو أن توقف هؤلاء أدى إلى نزاع خشي يوسف أن يتطور إلى صراع دامٍ، فلم يتسم بأمير المؤمنين واكتفى بلقب الامير[5] وما تسمّى بلقب الخلافة إلا عام ١١٦٨/٥٦٣ بعد أن أجمع عليه السادة بنو عبد المؤمن[6]. ولما خلفه

(١) روض القرطاس ص ١٣١.

(٢) المن بالإمامة ص ٢١٦ ـ ٢١٧، ٢٢١ ـ ٢٢٢؛ الكامل جـ ١١ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢؛ البيان المغرب جـ٣ ص ٥٤ ـ ٥٥، روض القرطاس ص ١٣٢؛ نهاية الإرب ص ٢١٧ ولكن عبد الواحد المراكشي ويتابعه ابن خلكان يرى ان خلع محمد كان بعد وفاة أبيه أنظر المعجب ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ ووفيات الأعيان جـ٢ ص٤٠٤ وجـ٦ ص ١٣٣ ـ ١٣٤ ويبدو أن المراكشي وهم في أمر الوصية ليوسف أنظر الوصية في المن بالإمامة ص ٢٣١.

(٣) المن بالإمامة ص ٢٣٢؛ روض القرطاس ص ١٣٧؛ البيان المغرب جـ٣ ص ٥٨ وقد ورد في روض اسم ابي عبد الله بدلاً عن ابي سعيد وهو خطأ.

(٤) المن بالإمامة ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٥) روض القرطاس ص ١٣٧.

(٦) المن بالإمامة ص ٣٣٨؛ روض القرطاس ص ١٣٨؛ البيان المغرب جـ٣ ص ٦٣.

ابنه المنصور عام ١١٨٤/٥٨٠ كان له من إخوته وعمومته منافسون لا يرونه أهلاً للامارة فتلكأ في بادىء الأمر، ففرق فيهم الاموال[١]، ولكن بعضهم ظلّ متحيناً للفرصة التي أسعفته في خروج المنصور إلى افريقية لإخماد ثورة بني غانية، فطمع في الأمر أخوه أبو حفصي عمر، وكان بمرسية، فتلقب بالرشيد، وعمه سليمان بتادلا من بلاد صنهاجة، فقتلهما صبراً في سنة ١١٨٧/٥٨٣[٢]. ولما رجع المنصور من غزوة شلب مريضاً طمع أخوه أبو يحيى في الخلافة فداخل أشياخ الأندلس ودعاهم لنفسه، فلما استقلّ المنصور من مرضه قتله. ومن بعده خشي المنصور القرابة واستذلّهم حفاة عراة «ولم يزل أمرُ القرابة من يومئذ في خمول وهلمّ وقد كانوا قبل ذلك لا فرق بين أحدهم وبين الخليفة سوى نفوذ العلامة[٣]».

ومنذ وفاة المستنصر بن الناصر يأخذ الصراع أسلوباً دموياً، فأبناء المنصور وأحفاده يرون أنهم أحق بالأمر من سائر بني عبد المؤمن وأحفاده، ويريد أبناء الناصر، من بين أبناء المنصور، الاستئثار بالخلافة دون سواهم، فلما بويع عبد الواحد خلفاً للمستنصر خرج عليه العادل وادعى الأمر لنفسه لأنه ابن المنصور وأخو الناصر وعمّ المستنصر[٤]. وخرج السيد عبد العزيز بن الخليفة السعيد على الواثقي ابي دبوس آخر خلفاء الموحدين لأن ابا دبوس ليس من بني المنصور[٥]. وتقلد يحيى بن الناصر الخلافة رغم بيعة الموحدين للمأمون ابن المنصور وحجته أنه ابن الناصر، والأمر ينتقل من الخليفة إلى نجله، وصرح بذلك في رسالة إذ يقول «..... ولما كانت هذه القلادة لم تزل من لدن سيدنا الامام تنتقل من يد الامام إلى نجله، وكان الامر من مستحقيه وفي أهله، إلى أن بلغ الأمر إلى المستنصر بالله

---

(١) المعجب ص ٢٦٠.

(٢) المعجب ص ٢٧٦ - ٢٧٨؛ البيان المغرب جـ٣ ص ١٧١ - ١٧٣؛ روض القرطاس ص١٤٣ غير ان ابن عذارى يجعل مقتلهما في ١١٨٨/٥٨٤، ويجعله ابن ابي زرع في ١١٨٦/٥٨٢.

(٣) المعجب ص ٢٨٠ - ٢٨١.

(٤) روض القرطاس ص ١٦٢.

(٥) البيان المغرب جـ٣ ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

أمير المؤمنين، والناس في أَمَنة وفي تهدين، ولو أجله الأجل، وساعده الامل، لألقي هذه القلادة إلينا، وتلا قول نبيّة أنا يوسف وهذا اخي قد منّ الله علينا[1]. . . .»

وكانت لهذا النزاع آثار وخيمة على الدولة ومصيرها؛ فمنذ وفاة المستنصر اصبح من المعتاد أن يكون على رأس الدولة اكثر من خليفة، فاضطر كل منهم أن يستنجد بعناصر من قبائل الموحدين والعرب المهاجرين والمنتزين من حكام الولايات المستبدين، وبل وبأعدائهم من النصارى فوجدت مراكز القوة في النزاع فرصة سانحة لبسط نفوذها وتولية من تشاء وعزل من تريد، فسقطت هيبة الخلافة، مما ساعد على اضمحلالها وزوالها. ونستطيع أن نحدد آثار طريقة اختيار الخليفة وما أعقبها من نزاع على السلطة على كيان الدولة في ثلاثة مظاهر: تعدد الخلفاء في وقت واحد، والاستعانة بالنصارى، وتولية حكام ضعاف.

ولما تولى الخلافة عبد الواحد بعد وفاة يوسف المستنصر خالف عليه بعد شهرين ابن أخيه العادل بن المنصور بمرسية، وحسم الامر بخلع عبد الواحد ثم قتله والاجماع على خلافة العادل[2]؛ وبعد قليل خرج على العادل واليه على قرطبة في ٦٢٣/١٢٢٦ السيد أبو محمد عبد الله البياسي[3]، وبمقتل العادل بايع الموحدون المأمون بن المنصور، فلما خشى الاشياخ قوة شخصيته بايعوا يحيى بن الناصر، وظلّ كل منهما مدعياً للأمر، عاملاً على إحراز النصر على منافسه طوال خلافة المأمون وما يقرب من الاربعة اعوام من خلافة الرشيد (شوال ٦٢٤ - ٦٣٣/١٢٢٧ - ١٢٢٦)[4]. وفي عام ٦٢٩/ ١٢٣١ ظهر إلى جانبهم خليفة ثالث لما ادّعى

---

(١) البيان المغرب جـ٢ ص ٢٦٣.

(٢) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٤٧/٢٤٨؛ روض القرطاس ص ١٦٢.

(٣) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٤٩؛ العبر جـ٦ ص ٥٢٧.

(٤) كان مقتل يحيى في ٦٣٣/١٢٣٦ أنظر البيان المغرب جـ٣ ص ٣٢٩، وروض القرطاس ص ١٦٦ وقد وهم ابن خلكان اذ جعله في أيام المأمون المتوفي في ٦٣٠، وفيات الأعيان جـ٦ ص ١٦.

الامر السيد أبو موسى بن المنصور بسبتة وتسمى بالمؤيد، فلما حصره المأمون فر إلى ابن هود في الأندلس[1]. ولا ريب في أن هذا النزاع أفقد الخلافة هيبتها، فأهملت الإدارة، وانتشرت الفتن، وقلّت المجابي، واستبد الولاةُ بولاياتهم عندما اندلعت نار الحروب الضارية بين بني عبد المؤمن[2].

ثانياً في حمى المنافسة أراد كلّ فريق النصر بكلّ وسيلة فنسي اكثرهم المبادىء التي قامت عليها الدولة من نشر للفكرة وسيادة لسلطتها ومقاتلة لأعدائها من مسلمين محاربين وأعداء كافرين، فطفقوا يبحثون عن العون ممن كانوا لهم بالأمس مقاتلين، فابو محمد عبد الله البياسي يستعين بالنصارى[3]، والمأمون لما نكث أهل مراكش بيعته وهو بالأندلس استنصر ملك قشتالة الذي اشترط عليه عشرة حصون يختارها وأن يبني كنيسة للروم بمراكش مقابل عدد من الفرسان الروم[4]، فهكذا دفع الصراع أمراء الموحدين إلى التنازل عن أراضي الدولة في سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة، وقد كان استخدام الروم من المآخذ الأساسية التي استغلها خصوم المأمون في تأليب الموحدين عليه[5]، ولم يكن المأمون أول من جوَّز الروم الى العدوة كما زعم صاحب روض القرطاس[6]، فقد سبقه علي بن يوسف

---

(١) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٧٦؛ روض القرطاس ص ١٦٩؛ العبر جـ٦ ص ٥٣١.

(٢) أنظر احداث الحروب بين المأمون والسعيد ويحيى في البيان المغرب جـ٣ ص ٢٥٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧٠ - ٢٧١، ٢٨٢، ٢٩١، ٣٠٦ - ٣٢٤؛ وروض القرطاس ص ١٦٤ - ١٦٥، ١٦٦، ١٦٩ - ١٧٠؛ والإحاطة جـ١ ص ٤١٩، ٤٢٥.

(٣) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٤٩؛ العبر جـ٦ ص ٥٢٧.

(٤) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٦٤؛ روض القرطاس ص ١٦٧؛ الإحاطة جـ١ ص ٤١٩. وقد ذكر ابن عذارى أن عدد الجند النصراني خمسمائة بينما عند ابن أبي زرع ١٢ ألفاً.

(٥) لقد وجدت هذه الدعاية صدى واسعاً في شعر هذه الفترة فابن الصفار المعروف البرنامج يدافع عن يحيى ويعرض بالمأمون فيقول:-

لم ينتصر بالنصارى والبغاة على ... المطهرين من الأوناس والريب

البيان المغرب جـ٣ ص ٢٦٢.

(٦) روض القرطاس ص ١٦٧.

أمير المرابطين إلى ذلك[١]. أما استخدامهم في جيوش المسلمين فيرجع إلى عهد أسبق من زمن المرابطين[٢]. ويبدو أن النصارى كانوا يجيدون قتال الزحف بينما كان أهل المغرب والعرب يتقنون قتال الكر والفر، فدفع ذلك الأمراء المسلمين لاستخدامهم في جيوشهم لردع الثوار الخارجين عليهم[٣]. ولم يكن أمراء الموحدين بدعة في ذلك؛ ولم يكن استخدام النصارى ليسد الثغرة أو يستر العورة فقد أصبحوا مركز قوة جديداً في الدولة أضعف موقف الخلفاء في نظر الموحدين، وأخلّ بنظام الجيش، وتحكم الجند الرومي في الادارة. وهذا كله سنعالجه في مواضعه في هذه الدراسة.

ثالثاً: ان النزاع جعل المتنفذين من أشياخ الموحدين أو الاداريين أو القواد العسكريين يتدخلون في اختيار الحكام منذ وفاة يوسف المستنصر. ولما كانت الخلافة قد استقرت في بني عبد المؤمن فقد عمدوا لتوليه حكام ضعفاء صغار سن أو مقعدي شيخوخة او باحثين عن ملذاتهم تاريكين الأمور دولتهم. ففي شعبان ٦١٠ بويع يوسف المستنصر وعمره ستة عشر عاماً[٤] وخلفه في ذي الحجة ١٢٢٢/٦٢٠ عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن وقد كان في سن الشيخوخة[٥]. ولما نكث أشياخ الموحدين بيعة المأمون بعد مقتل العادل مالوا إلى يحيى بن الناصر «وهو غر لم يجرب الامور[٦]». ولم يكن الرشيد بأكبر منه لما بويع بعد وفاة أبيه المأمون. ويبدو أن القرابة ملوا تولية الصبيان، فلما توفي الرشيد في جمادي الاول ١٢٤٢/٦٤٠ واراد بعض القرابة تولية ولده صغيراً كما قدم هو، قال بعضهم «لقد أعيينا من تقدم الصبيان علينا». فعلق ابن عذاري قائلاً «يعنون يوسف المستنصر

---

(١) الحلل الموشية ص ٦٩؛ البيان المغرب جـ ٤ ص ١٠٢ ـ ١٠٣.
(٢) لاسيما فترة ملوك الطوائف وبخاصة مع عماد الدولة ابن هود (البيان المغرب جـ ٤ ص ٥٣ ـ ٥٤) وابن مردنيش (المعجب ص ٢٤٩).
(٣) العبر جـ ١ ص ٤٩٣.
(٤) المعجب ص ٣٢٤؛ العبر جـ ٦ ص ٥٢٣.
(٥) البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٤٧؛ روض القرطاس ص ١٦٢.
(٦) وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١٥.

ويحيى أخاه والرشيد[1]». ومن أتيحت له منهم فرصة البقاء في سدة الخلافة حتى يكبر، كثيراً ما كان ينهمك في ملذاته غير عابىء بشؤون دولته. فقد فقدت الدولة سهر الحكام الاول وتدقيقهم في أمور الحكم، وإشرافهم على كل أمر جلّ أم صغر. فالناصر منذ هزيمة العقاب احتجب وانهمك في الملذات حتى وافاه حينه[2].

ويوسف المستنصر لم يخرج من حضرته طوال أيام خلافته، وكان مولعاً بانتجاع البقر والخيل في رياضه وتوفي من طعنة بقرة شرود[3]. والمرتضى كان ميالاً للدعة والمسالمة[4]، ومولعاً بالسماع ليلاً ونهاراً[5]. فضعف الخلفاء الذي ساوق مرحلة الانحلال هيأ ظرفاً مواتياً ومناخاً صالحاً لتفكك الجهاز الاداري وانهياره فاستتبع ذلك تفشي الثورات والفتن، وتقلص أراضي الدولة وخراب الوضع الاقتصادي.

ان ضعف الخلفاء يسّر طريقّ مجموعات متعددة للسيطرة والتسلط على مقدرات الدولة والتحكم في سياستها وتوجيهها. وكان لأشياخ الموحدين أثر بالغ في ذلك من دون سائر المجموعات الأخرى إدارية أم قبلية أم عسكرية.

ان ابن تومرت عندما أقام هيكل إدارته في بداية أمره كون هيئة من كبار أصحابه لتعاونه في تصريف شؤون الحكم سماها أهل الجماعة أو العشره. وأسس هيئة ثانية أكثر عدداً شملت زعماء المجموعات القبلية سماها آيت خمسين. وكان لهذه الهيئة دور استشاري. ومن بقي من أعضاء الهيئتين في زمن عبد المؤمن نال حظوة واسعة ونفوذاً عظيًا في الادارة والجيش. وتوارث أبناء أهل الجماعة وآيت خمسين مكان آبائهم، وظلوا

---

(١) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٥٨.

(٢) روض القرطاس ص ١٦٠.

(٣) روض القرطاس ص ١٦١؛ وفيات الأعيان ص ٦: ١٥.

(٤) البيان المغرب جـ٣ ص ٤٠٤.

(٥) روض القرطاس ص ١٧٣.

على وفاء عظيم للخلفاء الأول، لقوة شخصية أولئك الخلفاء أولاً، وحداثة الدولة ثانياً، وحيوية فكرة المهدية في النفوس ثالثاً. ومع تقادم الـزمن وابتداء من حكم الناصر حاولوا السيطرة والتنفذ. وهذا يفسر نكبة الناصر لأشياخ الموحدين قبل موقعة العقاب مما حدا بهم لعدم الاخـلاص في القتال. وكان ذلك أحد عوامل الهزيمة الكبرى[1] التي لم تُقِلْ الدولة بعدها العثرة. ويبدو ان الناصر أراد البطش بهم فعاجلوه قبل أن يعاجلهم. ففي رواية روض القرطاس أن الناصر مات مسموماً بأمر وزرائه[2]. وكلمة وزراء لا تعني أكثر من أشياخ الموحدين فالموحدون لم يعرفوا غير وزير واحد، والاندلسيون هم الذين تجاوزوا في تحلية الناس بلقب الوزير[3].

ويبدو أن هنتاتة وأهل تينملل هما المجموعتان الغالبتان على مجلس الاشياخ الموحدين خلال فترة الانحلال. فقد كانوا غالبين على العادل، وهم الذين قتلوه[4]، وبايعوا المأمون ثم نكثوا، فقدموا يحيى بن الناصر. ولهذا كان جل من قتله المأمون أو نكبه من هاتين المجموعتين[5].

ومنذ وفاة عبد الناصر استبد هؤلاء الأشياخ بالامور، فرفعوا للخلافة من شاءوا، وخلعوا من كرهوا، وقتلوا من أرادوا، وصار أمرهم كالأتراك مع بني العباس[6]، ولا ريب في أن بيعة عبد المؤمن تمت نتيجة إجماع أشياخ الموحدين سواء في نطاق أهل الدار حسب ما يرويه ابن القطان[7] او من بقي من أهل الجماعة كما في قـول المعجب والحلل الموشيـة[8] او الأشياخ عامة كما توحي رواية روض القرطاس[9]. ولكن بعد أن جعل

(١) ابن عذارى: البيان المغرب جـ٣ ص ٢٤٠، ٢٤١.
(٢) روض القرطاس ص ١٦٩.
(٣) ابن شريفة: ابو المطرف ابن عميرة ص ٥٢ تعليق ٢ والمراجع المذكورة.
(٤) العبر جـ ٦ ص ٥٢٨.
(٥) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٦٥.
(٦) روض القرطاس ص ١٦٣.
(٧) نظـم الجمان ص ١٣٠.
(٨) المعجب ص ١٩٤؛ الحلل الموشية ص ١١٨.
(٩) انظر اعلاه ص ١٠ تعليق.رقم (٤).

عبد المؤمن الخلافة وراثة في عقبه كان القرابة يختارون والأشياخ يوافقون. وهذا ما حدث في استخلاف الخلفاء من يوسف بن عبد المؤمن إلى يوسف المستنصر خامس الخلفاء الموحدين[1]. غير أن الأمر اختلف منذ وفاة يوسف المستنصر في ذي الحجة ٦٢٠/١٢٢٣ فأصبح الأشياخ يفرضون من يريدون وما على القرابة إلا السمع والطاعة فبايعوا عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، ثم خلعوه وقتلوه خنقاً ونهبوا قصره وسبوا حريمه بعد ان قام عليه بعد شهرين من بيعته ابن أخيه أبي محمد بمرسية وتلقب بالعادل[2]، ولما نقموا على العادل خلعوه وقتلوه في شوال ٦٢٤/١٢٢٧[3]، ويبدو أن ذلك كان بتحريض من المأمون[4] الذي علم أن لا أمل له في الخلافة بغيرهم. ولما شعروا بخطورة المأمون عليهم وخشوا أن ينتقم لعمه وأخيه نكثوا وحاولوا البيعة لفتى صغير ليكون طوع بنانهم هو يحي بن الناصر[5]. وهذا ما دفع المأمون للاستنجاد بملك قشتالة. ولما دخل مراكش عام ٦٢٦/١٢٢٩ قتل الناكثين لبيعته. وللخلاص من تسلط مجلس أشياخ الموحدين كفر بفكرة المهدية، وأزال اسم المهدي من الخطبة والسكة والأذان، وقطع النداء بالبربرية عند الصلاة[6]. ولم تستمر هذه السياسة الجديدة اذ استرضى ابنه الرشيد الذي خلفه عام ٦٣٠/١٢٣٢ الموحدين من جدميوه وهنتاته وأهل تينملل، وأعاد ما قطع أبوه من

---

(١) انظر المن بالإمامة ص٢١٦ - ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٣١؛ المعجب ٢٦٠، ٣٠٧؛ رسائل موحدية ص١٩٢؛ البيان المغرب جـ٣ ص ٥٤ - ٥٥، ١٤٠ - ١٤١، ٢١١ - ٢١٢؛ روض القرطاس ص ١٣٢، ١٥٣.

(٢) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٤٧؛ روض القرطاس ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٣) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٥٢.

(٤) روض القرطاس ص ١٦٤، ١٦٦ - ١٦٧، وقارن ذلك مع ما يورده ابن عذارى في البيان المغرب جـ٣ ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٥) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٥٣؛ روض القرطاس ص ١٦٧.

(٦) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٦٧ - ٢٦٨؛ روض القرطاس ص ١٦٧ - ١٦٨؛ العبر جـ٦ ص ٥٣٠، الاحاطة جـ١ ص٤١٩ - ٤٢٠ وهذا وتذكر رواية بن عذارى ان عدد من قتل قد كان مائة بينما يقول صاحب روض القرطاس ان العدد بلغ ٤٦٠٠ رجلاً.

رسوم، وأعطاهم الديار والأسهام[1] مقابل أن يؤيدوه وينقلبوا على منازعه يحـي بن الناصر. ويصور لنا ابن عـذاري تلقيهم لنبأ إعـادة الرسـوم وامتيازاتهم فيقول «فيا الله ماذا بلغ من سرورهم وما كانوا فيه من الارتياح عند سماعهم وانطلاق السنتهم بالدعاء إلى الله تعالى في نصر خليفتهم وتأييده، وإعلاء أمره وتجديده، وشملت الأفراح الكبير منهم والصغير، وعم الجذل الحاضر والبادي. . . ويـولغ في ادنائهم وتكـريمهم، وأحل اشياخهم محل أشياخ الموحدين على قدم الزمان، واستبشروا بنعمة من الله ورضوان[2]. وساروا سيرتهم، وواصلوا تغلبهم، فما إن توفي الرشيد في جمادى الأخرى ١٢٤٢/٦٤٠ حتى اجتمعوا وأرادوا أن يختاروا خلفاً له، ولكن القرابة هذه المرة اجتمعوا أيضاً في محاولة لبسط نفوذهم، إلا أن الأمر تم برأي أحد أشياخ الموحدين فاضطر القرابة للموافقة[3] وكذا فعل الأشياخ بعد وفاة السعيد فقد بايعوا المرتضى[4].

إن أشيـاخ الموحـدين الذين احتلوا المـراكز الاسـاسية في الـدولة أصبحت لهم مكاسب لن يتخلوا عنها، فكانوا دائماً يبسطون نفوذهم لكيلا يفلت زمام الحكم من أيديهم ولهذا استبدوا. ولما كانت مصالحهم متضاربة فقد أغرقوا الدولة في فتن وثورات لم تهدأ.

(ب) التفكك الاداري:

إن هذا النزاع بين السادة بني عبد المؤمن، ووجود الخلفاء الضعفاء، وتسلط أشياخ الموحدين على العاصمة، واضطراب الأحوال فيها، شاعد ولاة الأقاليم على الاستبداد بولاياتهم، وانفصل بعضهم نهائياً عن مراكش مستقلاً بولايته أو مبايعاً لمنتز آخر أقوى منه. وقد وجدت ظاهرتا التمرد والاستقلال خير معين في النظام الاداري الذي وضع أسسه عبد المؤمن

(١) العبر جـ٦ ص ٥٣٣.
(٢) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٠٥.
(٣) نفس المصدر جـ٣ ص ٣٥٨ - ٣٥٩؛ العبر جـ٦ ص ٥٣٨.
(٤) البيان المغرب ٣: ٣٨٩ - ٣٩٠.

الذي ولى أبناءه حكاماً على الولايات عام ٥٤٩[1] لما حول نظام الخلافة إلى الوراثة، واستمر هذا التقليد في عهد من جاء بعده من الخلفاء. وليس من استثناء لهذه القاعدة سوى أبناء بعض أشياخ الموحدين من أمثال الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي، والشيخ أبي إبراهيم الهزرجي، والشيخ ابن جامع، وبعض أبناء حكام الأندلس السابقين، تألفاً لهم، مثل ابي الحجاج يوسف بن مردنيش. وهذا الأمر اختلف يسيراً خلال فترة الانحلال، فحاول الرشيد تولية أشخاص بقابليات ادارية ليعيد لدولته فاعليتها. فولى أبا علي ابن خلاص البلنسي سبتة[2] وأبا يحي يغمراسن تلسمان.

فنتيجة لضعف الخلفاء استبد الولاة بولاياتهم ولاسيما السادة منهم. فمنذ أيام يوسف المستنصر بدأ حكام الولايات الاستبداد بمقاطعاتهم دون رقيب أو حسيب[3]. ومع توالي الضعف والانهيار كان الولاة أحد ثلاثة: إما من السادة فحاول أن يستقل بولايته ليتخذها نواة للمطالبة بالخلافة، أو من أسرة موحدية عريقة لها فضل في الدعوة وسبق كما كان لبني عبد المؤمن فتشوفت لنزع الراية منهم، أو شخص طامع في الاستبداد ولا يقوى عليه فيبايع القويَّ من الحكام ويستبد في أغلب الاحيان. فمن النوع الاول السيد ابو زيد البياسي في بلنسية ودانية وشاطبة وجزيرة شقر منذ صفر ١٢٢٤/٦٢١[4]، وأخو عبد الله البياسي في قرطبة ابتداء من سنة ١٢٢٦/٦٢٣[5] والسيد أبو موسى في سبتة عام ١٢٣١/٦٢٩[6] والسيد أبو عبد الرحمن والي سلا سنة ١٢٦٠/٦٥٨[7].

(١) الحلل الموشية ص ١٢٥ - ١٢٦، روض القرطاس ص ١٢٦ - ١٢٧؛ الكامل جـ ١١ ص ٢١١ - ٢١٢، نهاية الارب ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ولكن ابن الأثير ويتابعه النويري يجعل ذلك في سنة ٥٥١.

(٢) العبر جـ ٦ ص ٥٣٦.

(٣) اشياخ: تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٤٠١.

(٤) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٤٨.

(٥) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٤٩ - ٢٥٠؛ روض القرطاس ص ١٦٤.

(٦) نفس المصدر جـ ٣ ص ٢٧٦؛ روض القرطاس ص ١٦٩.

(٧) البيان المغرب جـ٣ ص ٤٢٢ - ٤٢٣.

ومن النوع الثاني الحفصيون فقد امتنع الشيخ ابو محمد ابن الشيخ ابي حفصى عن بيعة يوسف المستنصر لصغر سنه[1]، ومع المأمون انفصلوا بها[2].

ومن النوع الثالث أبو علي ابن خلاص البلنسي في سبتة ١٢٤٢/٦٤٠ وابو عبد الله ابن زكريا الهزرجي في سجلماسة[3]، وأبو محمد بن وانودين في درعة سنة ١٢٣٦/٦٣٤[4]، وأبو يحي يغمراسن في تلمسان. والعزفي في سبتة ١٢٥٦/٦٥٤[5] والشيخ أبو محمد عد الحق الجنفيسي في سجلماسة ١٢٥٧/٦٥٥[6].

ففي فترة الانحلال كان الولاة يمارسون ما يسميه الماوردي بامارة الاستيلاء، فكثيراً ما يستولي المنتزي على الولاية فيقره الخليفة المغلوب على أمره على تلك الولاية إن أراد المستبد بها ذلك. كان العزفي في سبتة سنة ١٢٦٠/٦٥٨ لا يعترف بسلطان الخليفة الموحدي. ولكن لما تحرك أسطول قشتالة إلى سلا كان يراقبه فحذر الشواطىء وهنا أرسل الخليفة المرتضى خطاباً للعزفي يشكره على تبصره ويحضه على مباشرة فعله في كل حين[7]. وهذا أمر قام به العزفي أراد المرتضى أو لم يرد وإن شاء فعل ما يريد ولا يستطيع الخليفة أن يرد له طلباً.

لقد رافق الضعف السياسي المتمثل في الخلفاء وأشياخ الموحدين والولاة ضعف إداري تجسد في تسلط الوزراء والموظفين. ان ميزة الادارة الموحدية في عصر ازدهار الدولة دقة الجهاز الاداري، وحسن ضبطه، وسهر الخلفاء الأول وإشرافهم بأنفسهم. وكان وزراؤهم للتنفيذ والتبليغ

---

(١) العبر جـ٦ ص ٥٢٣.
(٢) نفس المصدر جـ٦ ص ٥٢٩.
(٣) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٥٩ - ١٣٦٠ العبر جـ٦ ص ٥٣٨.
(٤) العبر جـ٦ ص ٥٣٥.
(٥) البيان المغرب جـ٣ ص ٤١٤، ١٤٤٠ العبر جـ٦ ص ٥٤٢.
(٦) البيان المغرب ٣: ٤١٥، ٤١٦.
(٧) أنظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ٣ ص ٤٢٣ - ٤٢٦.

ومن ظهرت منه بوادر الاستبداد او التهاون نكب بلا رحمة[1]. وتبدل هذا التقليد من عهد الناصر فاستعلى الوزراء على الخلفاء، وأصبحوا الموجهين للادارة، الواضعين لأسس السياسة. فتغلب على دولة الناصر وزيره ابو سعيد ابن جامع، واستعلى على الموحدين، والاجناد الاندلسيين حتى أفسد نيتهم، وكانت معاملته تلك من الأسباب الأساسية لهزيمة العقاب[2]. وكان إليه مرد الأمر كله حتى إبرام السلم مع النصارى[3] الذي لم يكن في يوم من ايام الموحدين الزاهرة إلا من اختصاص الخلفاء، فاستعلى على الناس جميعاً حتى كرهوه[4].

وتغلب على دولة العادل وزيره أبو زيد محمد بن الشيخ أبي حفص[5]. وفي دولة الرشيد كان التدبير والحل والعقد بيد وزيره عمه السيد أبي محمد[6] أولاً، ثم وزيره أبي زكريا ابن أبي الغمر في آخر ايامه حتى كان له تعيين أصحاب الأشغال بعد أن كان ذلك من مهام الخليفة طوال فترة من سبق الرشيد من خلفاء[7]. ومع المرتضى اصبح هنالك وزراء يشرفون على الناحية العسكرية مثل ابن يونس أولاً ثم ابي زيد بن بكيت أخيراً[8].

ولم يستبد بالأمور أشياخ الموحدين والولاة والوزراء فحسب فكل من ملك قلب الخليفة بدالةٍ تحكم في الأمور، وصار له الأمر والنهي، فقد قال ابن عذاري عن يحي بن الناصر «وكان المتولي على باطن يحي والحاجب له والناظر عليه والكافل لأموره والضابط لنفقاته والمرجوع إليه في مصالحه

---

(١) أنظر بعض احداث ذلك في المن بالإمامة ص ١٣٦، ١٧٣ - ١٨١؛ البيان المغرب جـ٣ ص ٣٦؛ روض القرطاس ص ١٢٨، ١٣٠؛ الإحاطة جـ١ ص ٢٧٣.

(٢) روض القرطاس ص ١٥٦ - ١٥٨.

(٣) العبر جـ٦ ص ٥٢٤.

(٤) نفس المصدر جـ٦ ص ٥٢٥.

(٥) العبر جـ٦ ص ٥٢٨.

(٦) العبر جـ٦ ص ٥٣٢.

(٧) أنظر البيان المغرب جـ٣ ص ٢٨٩.

(٨) نفس المصدر جـ٣ ص ٤٠٤ - ٤٠٥؛ العبر جـ٦ ص ٥٤٦.

وداره وحرمه ومملكته على تقلصها فتى اسمه بلال يكنى ابا حمامة» بل تولى الكتابة بالعلامة في الظهائر بمداد الخلفاء الأحمر. وزعم ابن عذاري أن ذلك لشلل في يد يحي اليمنى[1]. وما أحسب ذلك إلا اعتذاراً من ابن عذارى عن يحـي.

وعلى الرغم من أن دولة الموحدين سلمت من تدخل النساء فترة طويلة من الزمن إلا أن حبابة الرومية زوجة المأمون وأم ابنه الرشيد عملت لبيعة ابنها وكتمت وفاة والده[2] بعد أن بذلت الأموال[3] لكبار القواد لا سيما أبناء جنسها من الروم. وأغلب الظن أنها كانت تسير دفة الامور في عهد ابنها، فلما خرج الرشيد لتأديب هسكورة عام ٦٣١ حين ارتدت عنه إلى منافسه يحيى بن الناصر وتوالت جيوش يحيى على مراكش، كتبت تستدعيه لعاصمته.[4] ولما خلف السعيد الرشيد في الخلافة حبسها وأغرمها مالاً[5]. فهكذا أتاحت فترة الانحلال لعناصر كانت بعيدة طوال أيام عز الدولة للظهور والتحكم في مصائر الدولة.

(ج) الانهيار العسكري:

وبلا ريب ان اختلال النظام السياسي، وانهيار الهيكل الاداري تركا أثراً بالغاً في التنظيم العسكري للدولة، ولقد كان هـذا التنظيم الميـزة الاساسية للموحدين مما يسر لهم الانتصار في البداية، وحفظ الدولة الى أمد غير يسير، وكان جيشهم رائعاً في الترتيب سواء في مسيره او في قتاله، وكاملاً في الاستعـــداد والتعبئة، وممتازاً في الضبط والربط، وبـارعاً في الخطط الحربية وضعاً وتنفيذاً. ثم فقد كل هذه المميزات في حكم الناصر. وخير ما يجسد ذلك واقعة العقاب وقد سبق وأشرنا الى ذلك. ومن بعدها

---

(١) البيان المغرب جـ٣ ص ٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٢) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٨٢، الإحاطة جـ١ ص ٤٢٥.

(٣) روض القرطاس ص ١٧٠.

(٤) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٥) نفس المصدر جـ٣ ص ٣٥٩.

تابع مسيرته الهابطة، فتكرس انحلاله وتفككه في الهزائم المتكررة أمام بني مرين[1]. وفي فشل الحملات المتكررة على ابن يدر الثائر بالسوس[2]. وخير ما يجسد ما نقول واقعة بني بهلول في ١٢٥٥/٦٥٣ فانهزم الجيش دون قتال[3] ومن بعدها لم يستطع الخليفة المرتضى الخروج عن عاصمته[4]. ولما حضر فيها عام ١٢٦٤/٦٦٢ لم يستطع ردَّ المرينين في ساحة القتال بل باتاوةٍ يدفعها كل عام[5]. ويثور أبو دبوس على المرتضى ويدّعي الخلافة ويدخل مراكش في محرم ١٢٦٦/٦٦٥ ولا يجد المرتضى من يدافع عنها[6]. وحاول الواثق ابو دبوس نفخ الروح في هيكل الدولة الميت، وإعادة الحياة للجيش، فنجح بعض النجاح، ولكن الدولة كانت مواجهة بقوة حديثة عظيمة التنظيم شابة الروح فذهب أبو دبوس وفشلت محاولاته ودخلت دولة الموحدين في ذمة التاريخ.

يبدو أن عوامل انحلال الجيش وضعفه تعود إلى ضعف الفكرة الموحدية في نفوس الجند الذين أصبح همهم الأوحد الغنائم وجمعها لا القتال في سبيل مبدأ والموت في سبيله والاستشهاد من أجله وقد ساعد على هذا التيار عاملان:

أولاً: تبدل هدف القادة من ردع الثوار المحاربين وجهاد الاعداء الكافرين إلى اتخاذ الجيش أداة سياسية للاستعلاء وفرض النفوذ لحساب أشخاصهم أو لحساب غيرهم. فمن النسق الاول محمد بن عبد الكريم قائد الجيوش بالمهدية الذي استقل بها فترة من الزمن أواخر أيام المنصور وصدراً من خلافة الناصر[7]، وأيضاً شديد متولي فاس الذي استخدم

(١) راجع البيان المغرب جـ٣: ٣٩٢ ـ ٣٩٤، ٣٩٩؛ العبر جـ٦: ٥٣٧، ٥٤٢.
(٢) البيان المغرب جـ٣ ص ٤٠٥ ـ ٤٠٧؛ ٤١٥.
(٣) نفس المصدر جـ٣ ص ٤١٠ ـ ٤١٤؛ روض القرطاس ص١٧٣؛ العبر جـ٦ ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤.
(٤) البيان المغرب جـ٣ ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤؛ العبر جـ٦ ص ٥٤٥.
(٥) نفس المصدرين جـ٣ ص٤٤٠؛ جـ٦ ص ٥٤٦ ـ ٥٤٧ على التوالي.
(٦) روض القرطاس ص ١٧٤؛ العبر جـ٦ ص ٥٤٨.
(٧) الكامل في التاريخ جـ١٢ ص ١٤٦ ـ ١٤٧، نهاية الارب ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩.

الجند النصراني في استعباد الاهلين وابتزاز الأموال أيام المرتضى[١]. ومن النمط الثاني ما كان يحدث مع كل نزاع على الخلافة منذ وفاة يوسف المستنصر.

ثانياً: تزايد أعداد المرتزقة في الجيش من عرب وروم. وقد ورث الموحدون عن المرابطين استخدام العرب في جيشهم[٢] ولكن الموحدين عمدوا الى استجلابهم في أعداد كبيرة منذ أيام عبد المؤمن، وسار على هديه يوسف ثم المنصور. وقد كان دافع الخليفتين الأولين الاستفادة من طاقات العرب في جهاد نصارى الأندلس بينما كان هدف المنصور إلى تغريبهم عقاباً على فتنتهم في افريقية وتعاونهم مع بني غانية[٣].

وكان إدخال العربان في الجيش الموحدي كارثة على اهدافه ونظامه إذ لا هم لهم سوى السلب والنهب واكتساب المال ولا يعرفون نظاما ولا يتقيدون بأوامر. فمنذ ايام الخلفاء الاول كانوا يتمردون[٤] ويفرون من المعارك[٥] وكان الخلفاء يلاحقونهم بالعقاب في الحالين[٦]. وبعد النزاع بين السادة والتسلط من مراكز القوة وجد هؤلاء العربان سوقاً رائجة وتجارة رابحة، ففي كل فتنة تنشب وكلّ حرب تندلع كان لهم دور بارز يشايعون هذا او ذاك متوخين مصلحتهم المادية، ولا يتورعون عن بيع قائدهم مقابل

---

(١) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٩٩.

(٢) هناك إشارات عن اشتراك اعداداً من العربان في جيوش المرابطين أنظر نظم الجمان ص ١٠ والحلل الموشية ص ١٠١.

(٣) للمقارنة بين سياسة هؤلاء الخلفاء في هذا الموضوع راجع رسائل موحدية ص ١١١ - ١١٢، ١١٨ - ١١٩، ١٥٢ - ١٥٧؛ المعجب ص ٢٢٤ - ٢٢٦؛ المن بالإمامة ص ١١٦ - ١٤٤، ١٧٢ - ١٧٣، ٤١١ - ٤١٨؛ الكامل جـ١١ ص ٢٤٥ - ٢٤٧؛ البيان المغرب جـ٣ ص٣٨، ٧٦، ٨٨ - ٨٩، ١١٣ - ١١٤؛ روض القرطاس ١٣٠، ١٤٣؛ المن بالإمامة ص ١٧٢ ت ٣.

(٤) أنظر المن بالإمامة ص ٥٠٧ - ٥٠٨؛ البيان المغرب جـ٣ ص ١٩٩.

(٥) أنظر بعض الأحداث في البيان المغرب جـ٣ ص١٤٧، ١٦٠، ٢١٣: الكامل جـ١١ ص ٥٠٧؛ نهاية الإرب ص ٢٢٢.

(٦) أنظر مثلاً البيان المغرب جـ٣ ص ١٢٥؛ المن بالإمامة ص ٥٠٠.

جعل من المال فينهزمون ساعة الصدام الحاسمة. وهذا ما فعله الخلط مع السعيد[1] وعرب المعقل مع يحي[2] والخلط مع الرشيد [3].

أما الروم فقد كثر استخدامهم مع المأمون وحرص عليهم الرشيد ثم السعيد واستزاد منهم المرتضى. وقد دللوا حتى ان مراكش استبيحت لهم لما خربت كنيستهم عام ٦٢٩/١٢٣٢ على يد جند يحي بن الناصر فلما استسلمت مراكش اضطر الرشيد الى ان يسترضيهم بقيمة فيء العاصمة[4]. وفي عهد المرتضى كثرت حوادث عدم طاعتهم[5]، وكانوا - مثل العرب الهلالية - يتحولون لمن يدفع اكثر ولهذا تركوا المرتضى لما عجز عن طلباتهم وشايعوا الواثق أبا دبوس[6].

وثمة عامل له خطره في انهيار الجيش الموحدي خاصة في الجبهة الاندلسية فقد طرد الناصر زعماء الأندلسيين عن جيشه بايعاز من وزيره [7] ابن جامع، ففقد قوة بشرية هائلة كانت تتسم بالصمود في وجه الزحف النصراني في تلك الجبهة من الدولة المترامية الاطراف.

ولم يكن الاسطول في هذه الفترة بأحسن حالاً من الجيش الموحدي. لقد كان الاسطول خلال القرن السادس/الثاني عشر اكبر قوة ضاربة في البحر المتوسط واستنجد به صلاح الدين الايوبي على الصليبيين ايام

---

(١) أنظر البيان المغرب جـ٣ ص٣٨٦، ٣٨٨؛ روض القرطاس ص١٧٢؛ العبر جـ٦ ص٥٤١.
(٢) روض القرطاس ص ١٦٦؛ العبر جـ٦ ص ٥٣٣ - ٥٣٤.
(٣) البيان المغرب جـ٣ ص٢٩٦؛ العبر جـ٦ ص ٥٣٥.
(٤) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٨١، ٢٨٥؛ روض القرطاس ص ١٧٠، ويذكر ابن عذارى الإستباحة برأي المأمون ولكن في روض ان حباية هي التي أشارت بذلك.
(٥) أنظر البيان المغرب جـ٣ ص ٤٣٥؛ العبر جـ٦ ص ٥٤٦.
(٦) أنظر أحداث ذلك في المصدرين السابقين جـ٣ ص٤٤٢ - ٤٤٣، وجـ٦ ٥٤٨ على التوالي.
(٧) الروض المعطار ص ١٣٧ - ١٣٨، الإستقصا ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

المنصور[1] وطلبه جون ملك انجلترا سنة ١٢١٣[2]، بعد أن أبرز فاعلية كبرى في عمليات الفتح في افريقية والأندلس، وأسهم بقدر واسع في حملات الخلفاء الأربعة الاول في كلتا الجبهتين. ولكن منذ مطلع القرن السابع/ الثالث عشر أصابه الاهمال ودب في اوصاله الهزال. ففي سنة ١٢١١/٦٠٧ هزم البرجلوني الأسطول الموحدي عند برشلونة واستولى على حصون بلنسية[3]. وتعرضت الشواطىء لهجمات العدو فحصر الجنوبيون سبتة عام ١٢٣٥/٦٣٢ وما أقلعوا عنها الا عام ١٢٣٦/٦٣٣ بعد أن صالحهم أهلها على مال[4]. وطمع فرديناد الثالث ملك قشتالة في المغرب نفسه فزحف اسطوله على المغرب واحرز نصراً على الاسطول الموحدي سنة ١٢٥١/٦٤٩ ولكن موت فرديناد حال دون استمرار مشروعه[5]. وقد كانت المراسي المغربية خالية من القطع البحرية حتى ان ابن وقاريط الزعيم الهسكوري لما التجأ لابن هود طلب جفنين ليدخل سلا، ولكن أهلها هزموه[6] بعد أن كاد أن يغلب عليها[7]. وفي ١٢٦٠/٦٥٨ يدخل القشتاليون سلا ويخربونها ولا يخرجهم إلا المرينيون[8]. ويبدو أن الدولة في عهد السعيد فقدت أسطولها نهائياً ففي سنة ١٢٤٧/٦٤٥ عندما أراد استرداد البلاد الافريقية من الحفصيين طلب من ملك صقلية أن يمده بالأجفان إذا وصل البلاد الشرقية[9].

---

(١) أنظر عن هذه السفارة الروضتين جـ٢ ص ١٧٠ وما بعدها؛ وفيات الأعيان جـ٦ ص١٢؛ فرج الكروب جـ٢ ص ٣٦١/ ٣٦٢؛ الإستبصار ص ١٠٧؛ ابن عذارى: البيان المغرب جـ٣ ص ١٨٣؛ صبح الأعشى جـ٦ ص ٥٢٧ ـ ٥٣٠؛ ابن خلدون جـ٦ ص ٢٤٦. وأدناه الفصل الأول: العلاقات بين الأيوبيين والموحدين.

(٢) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٤٠١.

(٣) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٣٤.

(٤) روض القرطاس ص ١٨٣.

(٥) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٤٤٥.

(٦) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٣٩.

(٧) العبر جـ٦ ص ٥٣٦.

(٨) البيان المغرب جـ٣ ص ٤٢٢ ـ ٤٢٨، الذخيرة السنية ص ١٠٣.

(٩) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

أضف إلى كل هذا أن تقلص أراضي الخلافة تدريجياً قد افقد الموحدين اهم دور صناعتهم وذلك بخروج سبتة منذ ١٢٣٢/٦٢٩ عن أيديهم إثر ثورة أبي موسى أخي المأمون ثم فقدهم لبجاية التي ضمها الحفصيون سنة ١٢٣٠/٦٢٧.

(د) اتساع نطاق الثورات والفتن الداخلية:

ورافق ضعف الحكام ونزاعهم، وانهيار الادارة وتفككها، واختلال الجيش ونظامه، وضعف الأسطول وفقدانه، ثلاثة مظاهر: الثورات والفتن الداخلية وتقلص أراضي الدولة والانهيار الاقتصادي.

يقول عبد الله كنون عن ايام ابن تومرت ان «المغرب إذ ذاك وفي كل وقت هو القبائل[1]». والقبلية لا تعترف بسلطة خارج نطاق القبلية إلا تحت الظروف القاهرة فهي لا ترقى لفهم مسألة الدولة. وقد وعى ابن تومرت هذه الحقيقة، فكون هيئة استشارية من زعماء القبائل التي «وحدت»، فحفظ القبلية المصمودية في إطار جماعي رعى وحدتها. فلما نجحت الثورة واجهت دولتها الوليدة ثورات خطيرة من القبائل الأخرى، لأن خلفاء ابن تومرت لم يستوعبوا القبائل الجديدة في إطارهم التنظيمي. وثورات القبائل الأولى تعددت دوافعها منها ما قام بدافع التقليد أو بطبيعة التكوين النفسي أو لفقدان المركز الممتاز، فمن النوع الاول ثورة محمد بن عبد الله بن هود الماسي المتلقب بالهادي بالسوس فقد قام اقتداء بابن تومرت [2] مدفوعاً بالنجاح الذي حققه عبد المؤمن فثار في سنة ١١٤٧/٥٤١ بعد فتح مراكش، وسيطر على البلاد ما عدا مراكش وفاس، وكاد أن يعصف بالنصر الموحدي، غير أن عبد المؤمن تمكن من القضاء عليه في العام ذاته[3]. وأغرت هذه الثورة قبائل دكالة وبرغواطة بالثورة

(١) النبوغ المغربي جـ١ ص ١٠٣.
(٢) الحلل الموشية ص ١٢١.
(٣) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٦ - ٢٧؛ الحلل الموشية ص١٢١؛ روض القرطاس ص ١٢٣ - ١٢٤.

مؤيدة بالجيوب المرابطية التي انتفضت في سبتة بقيادة القاضي عياض، الذي استغاث ببني غانية سنة ١١٤٨/٥٤٣[١]، وواجه عبد المؤمن هذه الثورة بحزم وعنف شديدين.

ومن النوع الثاني الثورات التي اندلعت بعد ولاية يوسف بن عبد المؤمن في جبل غمارة موطن الثورات القبلية منذ أيام الفتح الاسلامي[٢]، وشملت بلاد صنهاجة، وما قضي عليها إلا بعد جهد جهيد في سنة ١١٦٧/٥٦٢ بعد ان اضطر يوسف للخروج بنفسه[٣]. ولكن الثورات في هذه المناطق لم تنقطع طوال أيام ازدهار الدولة كثورة صنهاجة القبلة في سنة ١١٧٦/٥٧٢[٤]، وعلودان الغماري سنة ١١٩٩/٥٩٥[٥]، وكانت تظهر ثورات في مناطق بربرية أخرى كثائر صنهاجة بجهات سجلماسة سنة ١٢٢١/٦١٨[٦]، وبربر حبل تاسررت في ١١٦٨/٥٦٣[٧]، وأبي قصبة الجزولي ١٢٠١/٥٩٧[٨]، بالسوس. ولهذا كانت طبيعة المغرب القبلية مناخاً صالحاً لذوي الطموح السياسي من كل صوب منذ نجاح الادارسة، ففي أيام الناصر قدم من مصر أحد سلالة الفاطميين وفي أيام المستنصر قام بثورته وقتل سنة ١٢١٥/٦١٢[٩].

وان كان هذا حال المغرب أيام قدرة الدولة على الحركة فبلا ريب أن هذه القبائل وجدت فرصتها مع الضعف السياسي والاداري والعسكري.

---

(١) روض القرطاس ص ١٢٤.

(٢) هو الموضع الذي ثار فيه المتنبي حاميم أنظر استبصار ص ١٦١؛ وابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص ١٩٨.

(٣) المن بالإمامة ص ٣٠٧ - ٣٢١؛ ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص٣١٢ - ٣١٣؛ البيان المغرب جـ٣ ص ٦٩ - ٧٢؛ نهاية الإرب ص ٢١٨.

(٤) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٠.

(٥) روض القرطاس ص ١٥٣.

(٦) المعجب ص ٣٢٩؛ نهاية الإرب ص ٢٣٢.

(٧) المن بالإمامة ص ٣٦٠؛ البيان المغرب جـ٣ ص ٧٦ - ٧٧.

(٨) المعجب ص ٣١٥ - ٣١٦؛ ابن عذارى: البيان المغرب جـ٣ ص ٢١٥.

(٩) المعجب ص ٣٢٩؛ البيان المغرب جـ٣ ص٢٤٣؛ نهاية الإرب ٢٣٢، ولكن النويري لا يذكر تاريخاً.

وقد وجدت تعبيراً عن نفسها في مجموعة زناتية دخلت المغرب حديثاً هي قبائل بني مرين، وفي أحيان قليلة قامت ثورات محلية كما فعلت الغازازية والمكلاتية عام ١٢٣٢/٦٢٩ فحصرت مكناسة ولكن المأمون استطاع ان يكبح جماحهم[١].

اما النوع الثالث:[*] فيتمثل في القبائل المرابطية التي فقدت مركزها الممتاز بسقوط دولتهم وقد سبق ذكر محاولتهم في المغرب وفشلها. واما في الاندلس فقد كان ابناغانية يحي ومحمد المسوفيان ولاة لعلي بن يوسف على بعض ولايات الأندلس وبخاصة قرطبة ففشلا في الاحتفاظ بها ففر محمد الى ميورقة ومنورقة ويابسة واستبد بها، وظل على نهج المرابطين من دعاء لبني العباس[٢]. ولما توفي خلفه ابنه أبو إسحاق فوفدت عليه بقايا لمتونة. ويبدو أن المرابطين اتخذوا ميورقة مركزاً لتجميع فلولهم، فأبو جعفر ابن عطية وزير عبد المؤمن ينصح صهره يحي ابن الصحراوية بالفرار الى هنالك لما ساءت علاقته بالموحدين. غير أن أبا إسحاق الميورقي ظل على علاقة طيبة بالموحدين دون أن يبايعهم، فلم يقنعهم ذلك فأرادوا الدعاء لهم في منابر ميورقة، فأرسلوا الى بني غانية في اواخر أيام يوسف محذرين منذرين وتوفي أبو إسحاق قبل أن يرد عليهم في سنة ١١٨٣/٥٧٩ وخلفه ابنه علي[٣]. ولما علم علي بوفاة يوسف بالأندلس غدر برسل الموحدين، وداخل جماعة من بجاية طمعاً بأخذها[٤]، ودخلها في سنة ١١٨٤/٥٨٠[٥]

---

(١) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٨٠؛ العبر جـ٦ ص ٥٣١.

* قد جرى الحديث عن دور بني غانية وقراقوش في البحث الأول، وهنا أضعة بما يتناسب وطبيعته البحث مع تكرار بعض الأحداث استكمالاً للصوت العامة.

(٢) أنظر عن بداية الميورقيين: المعجب ص٢٦٧ - ٢٦٨؛ البيان المغرب جـ ٤ ص٦٧؛أعمال الإعلام ص ٢٥٣ - ٢٥٤؛ العبر جـ٦ ص ٣٩١.

(٣) أنظر المعجب ص ١٩٩ - ٢٠٠، ٢٧٠؛ البيان المغرب جـ٣ ص ١٤٦؛ الروض المعطار ص ١٨٩ ولكن في المصدر الأخير الأحداث كلها في في أول خلافة المنصور.

(٤) رسائل موحدية ص ١٧٠؛ المعجب ص ٢٧٠؛ البيان المغرب جـ٣ ص ١٤٦.

(٥) المعجب ص ٢٦٦؛ الإستبصار ص١٣١؛ الكامل جـ١١ ص ٥٢٣؛ وفيات الأعيان جـ٦ ص ٥؛ روض القرطاس ص ١٧٩. ولكن في البيان المغرب (٣: ١٤٦) والإستقصا (٢: ١٥٩) وتاريخ الدولتين (١٥) تذكر الأحداث في عام ٥٨١ غير أن الزركشي يضيف =

في غياب واليها[1]. وملك قلعة بني حماد والجزائر ومليانة وأشير ثم سار إلى قسنطينة، غير أن أهلها قاوموه فحصرها[2]، واستطاع الجيش الموحدي بقيادة السيد أبي حفص استعادة هذه المدن منه، وفر الميورقي الى بلاد الجريد[3]. وكتب لحركته فصل جديد ينهك الدولة ولا يقضي عليها حتى تنفصل افريقية عن مراكش. وفي الجريد بدأ تعاون بني غانية مع الاغزاز المصريين والعرب.

ام الاغزاز فقد دخلوا بقيادة قراقوش مملوك تقي الدين ابن اخي صلاح الدين الأيوبي في عام ٥٦٨/١١٧٢[4]، فسيطر قراتكين على قفصة، وملك قراقوش أرجاء طرابلس ثم رجع الى مصر[5]. وهذا النجاح أغرى علي بن المعز المعروف بالطويل، فاستقل بقفصة حتى استردها يوسف في رمضان ٥٧٦/١١٨٣ عاد قراقوش وسيطر على نواحي طرابلس مجدداً، وانضم إليه عرب رياح ودياب[6]، وفتح بهم طرابلس وملكها[7]. ومنذ سنة ٥٨١/١١٨٥ تحالف مع الميورقيين.

اما العرب الذين تحالف معهم الميورقيون فهم قبائل هلال وسليم الذين دخلوا المنطقة في القرن الخامس/الحادي عشر[8]. ولما فتح الموحدون المنطقة تنبهوا للخطر الكامن في الروح البدوية على الأمن في افريقية.

= قائلاً: وقيل عام ٥٨٢. وقد رجحت قول المراكشي وصاحب الإستبصار لمعاصرتهما للأحداث.

(١) المعجب ص ٢٧٠، الكامل جـ ١١ ص ٥٠٧؛ نهاية الإرب ص ١٢٤.

(٢) رسائل موحدية ص ١٧٢ - ١٧٣؛ المعجب ص ٢٧٢؛ البيان المغرب جـ ٣ ص ١٤٨ - ١٤٩؛ الإستقصا جـ ٢ ص ١٦٠.

(٣) البيان المغرب جـ ٣ ص ١٤٩؛ الإستقصا جـ ٢ ص ١٦٠.

(٤) مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٣٥؛ رحلة التيجاني ص ١١١ بينما يفكر ابو شامة سنة ٥٧١ (الروضتين: ٢٥٩).

(٥) الروضتين جـ ١ ص ٢٦٠؛ رحلة التيجاني ص ١١٢، ١١٤.

(٦) البيان المغرب جـ ٣ ص ١١٤؛ المعجب ص ٢٥٢؛ الإستبصار ص ١٥١.

(٧) العبر جـ ٦ ص ٣٦٥؛ الإستقصا حـ ٢ ص ١٦٠.

(٨) المعجب ص ٢٠٤ - ٢٠٦؛ رحلة التيجاني، ص ١٧ وما بعدها؛ البيان المغرب: جـ ١ ص ٤١٧، العبر جـ ٤ ص ٦٢، جـ ٦ ص ١٤؛ الإستقصا جـ ٢ ص ١٦٥ - ١٨١.

فحاولوا استغلال العرب في جهاد نصارى الأندلس. ولكن البدو ظلوا في أكثر الأحيان رهن الاشارة من أي ثائر، فلا غرو ان تعاونوا مع الميورقيين.

فمنذ سنة ١١٨٥/٥٨١ استطاع الحلف الميورقي العربي السيطرة على بلاد الجريد[١] سيطرة أغرت أغزازاً أخر بالدخول إلى افريقية من مصر[٢]. ولم تهدأ البلاد نسبياً إلا بخروج المنصور إليها بنفسه في جيش عرمرم سنة ١١٨٧/٥٨٣[٣]. ففر علي الميورقي إلى الصحراء، واستسلم العرب، فغرّب عدداً من هلال وجشم[٤]، واستسلم قراقوش وأصحابه الأغزاز وصاروا في عداد الجند الموحدي[٥]. وتوفي علي الميورقي بعد فترة يسيرة وخلفه اخوه يحيى في الأمر[٦]. وحاول الموحدون السيطرة على جزيرة ميورقة حتى يقضوا على قاعدة الخطر الميورقي في افريقية، غير أن بني غانية استطاعوا استردادها بمساعدة الصقليين[٧].

ولما اشتغل المنصور بأمر الاندلس ٥٩٠ ـ ٥٩٣/١١٩٤ ـ ١١٩٧، سيطر يحيى بن غانية على أغلب البلاد، فاضطر لمصالحة النصارى خمس سنين[٨]، ولكنه توفي قبل أن يتحرك الى افريقية. فكان على خلفه ابنه الناصر ان يواجه الأحداث، فهزمت بعوثه[٩]، فرأى أن يعزل من بافريقية بأخذ قاعدتهم جزيرة ميورقة. ففي ختام القرن السادس/الثاني عشر سيطر

(١) المعجب ص ٢٧٢؛ ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦.
(٢) الروضتين جـ ٢ ص ٧٠؛ مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٨٢.
(٣) أنظر عن هذه الحملة رسائل موحدية ص ١٧٣ وما بعدها وص ١٨٤ وما بعدها وص ١٩٥ وما بعدها وص ٢١٢ وما بعدها؛ المعجب ص ٢٧٢؛ ابن عذارى: البيان المغرب جـ ٣ ص ١٤٩؛ روض القرطاس ص ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٤) الإستقصاء جـ ٢ ص ١٦٨.
(٥) المعجب ص ٢٨٨ ـ ٢٩٠.
(٦) راجع اختلاف المصادر في تاريخ الوفاة في المعجب ص ٢٧٣؛ الإستبصار ص ١٣١؛ وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١٨.
(٧) المعجب ص ٢٧٦؛ البيان المغرب جـ ٣ ص ١٥٥ ـ ١٥٦؛ ٢١٥ ـ ٢١٦.
(٨) المعجب ص ١٢٣ ـ ٢١٤؛ الكامل جـ ١٢ ص ١١٦؛ نهاية الإرب ص ٢٢٧.
(٩) المعجب ص ٣١٣ وما بعدها؛ البيان المغرب جـ ٣ ص ٢١٣.

أسطوله على يابسة ومنورقة وميورقة[1]. ثم خرج بنفسه في سنة ١٢٠٥/٦٠١ ولم يرجع إلى حضرته إلا سنة ١٢٠٨/٦٠٤[2]. ويبدو أنه اقتنع باستحالة سيطرة العاصمة على منطقة صحراوية بعيدة وشاسعة ومليئة بالعناصر المشاغبة فأوكل أمر افريقية في سنة ١٢٠٧/٦٠٣ للشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي. و «بسط يده على ما شاء وأبيح له في الجيش الانتقاء، وشد ظهره بتسريب الأموال والخيل والرجال[3]. ولكن الشيخ رغم جهوده الجبارة لم يستطع القضاء على ثورات الميورقيين وحلفائهم من أغزاز وأعراب[4]. إلا ان فعله ثبت للحفصيين قدماً في افريقية مهدت لهم الاستقلال بها عام ١٢٣٠/٦٢٧ وكتب لهم القضاء على الميورقين بمقتل يحي بن غانية سنة ١٢٣٣/٦٣٠، ولكن بعد أن وطدوا دعائم استقلالهم عن الخلافة في مراكش. إن ثورات الميورقيين والأغزاز والأعراب، وثورات البربر على اختلاف دوافعها أنهكت الدولة في أيام عزها. فقد دوخت هذه الثورات الدولة الموحدية واسهمت في انحلالها بنصيب وافر، وذلك لطبيعة المنطقة الصحراوية، وتركيبها البشري، وبعدها عن العاصمة، وتعاطف السكان المحليين مع الثوار، وانشغال العاصمة بمعارك في جبهتين في آن واحد: افريقية واندلسية. ولئن واجه الموحدون هذه الأحداث كتلة واحدة متراصة، في أغلب الأحيان، فقد أضعفتهم ثورات أخرى نبعت من صفوفهم مدعومة بمن ظنوه من حلفائهم وذلك ثورات القبائل المصمودية الموحدية التي وجدت دعمًا من القبائل العربية التي هجّرها الموحدون الى المغرب.

لقد حرص الخلفاء الاول على وحدة القبائل المصمودية الموحدية فعبد

---

(١) راجع اختلاف الروايات في تحديد السنة في المعجب ص ٣١٥ ـ ؛ البيان المغرب جـ٣ ص ٢١٥ ؛ روض القرطاس ص ٣١٧ ـ ٣١٨ ؛ رسائل موحدية ص ٣٥١ ـ ٢٥٩ ؛ البيان
(٢) المغرب جـ٣ ص ٢١٩ ـ ٢٢٦.
(٣) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٢٥ وانظر من هنا أعلاه ص ٧ تعليق رقم (١) والمصادر فيه.
(٤) أنظر مثلاً البيان المغرب جـ٣ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢، ٢٣٤.

المؤمن يزورها متفقداً لها مواطنها[1]. وفي فتنة سنة ١١٥٣/٥٤٨، يأمر كل قبيل بقتل المشتركين في تلك الفتنة من إخوتهم[2]، حرصاً على وحدة قبائلهم، ولكيلا يتوارثوا ثارات فيما بينهم. وسار خلفاؤه على هديه، وعملوا على حسم الخلاف بين قبائلهم[3]. ويجدر بنا أن نشير إلى أن هرغة هي القبيلة الوحيدة التي فقدت دورها في مؤسسات الدولة بعد أن فشلت بعض أفرادها في الثورة على عبد المؤمن ولكن أبقى الخلفاء على وضعها في المرتبة الأولى في عرض القبائل المصمودية على ما جرت عليه العادة من ايام المهدي، ولم تذكر كمجموعة قائمة بذاتها أيام الصراع الدامي على الخلافة. واتخذت القبائل المصمودية الموحدية الباقية مواقف محددة في الصراع متخذة من هذا الفريق من القبائل العربية أو ذاك حليفاً. وقد ذكرنا ان هنتاتة وأهل تينملل يمثلون مجموعة، وكانت كدميوة تبعاً لهم[4]، وكانت هسكورة ضد هذا التجمع، فلما بايع التجمع يحي بايع التجمع يحي ناكثاً بيعة المأمون امتنعت هسكورة، وهزمت جيشاً ليحي[5]، ودخل المأمون مراكش بمداخلتهم سنة ١٢٢٩/٦٢٦[6]. ولما بدأت بوادر الصلح بين الرشيد والتجمع بانضمام أبي عثمان سعيد بن زكريا الجدميوي[7] صحب ذلك تبدل في موقف هسكورة بقيادة ابن وقاريط، فتحولوا إلى يحي بن الناصر[8]. وتكرس موقف هسكورة مع يحي سنة ١٢٣٥/٦٣٣[9] بعد ان انضمت هنتاتة وأهل تينملل الى الرشيد سنة ١٢٣٤/٦٣٢[10] وهكذا رافق النزاع على العرش نزاع دام بين القبائل المصمودية الموحدية.

ووجدت القبائل العربية التي استقرت في المغرب فرصة عظيمة في النزاع، فشاركت فيه، فكان عرب الخلط مع هسكورة وضد سفيان[11]؟

---

(١) رسائل موحدية ص ٨٣ ـ ٨٨.
(٢) البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٩.
(٣) المعجب ص ٢٥١.
(٤) العبر جـ ٦ ص ٥٦٨.
(٥) روض القرطاس ص ١٦٥.
(٦) العبر جـ ٦ ص ٥٢٨.
(٧) البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٩٣.
(٨) نفس المصدر جـ ٣ ص ٢٨٨.
(٩) نفس المصدر جـ ٣ ص ٣٢٣.
(١٠) نفس المصدر جـ ٣ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦.
(١١) أنظر أحداث ذلك في البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٥٢، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٩٦، ٣٠٦، =

ولعل أخطر ما في تحركات هذه القبائل العربية هو التحرك من معسكر إلى آخر بدافع من المصلحة المالية، وقد ذكرنا ذلك من قبل. وقد وجدت هذه القبائل فرصة كبيرة في تقلص نفوذ الدولة، فقطعوا الطرق لا سيما عرب المعقل وعرب رياح بأحواز مكناسة وفاس[١] أضف إلى هذا ما احدثه دخول القبائل المرينية الى المغرب من اضطراب في حبل الامن في بداية امرهم. فقد كانوا يسكنون زاب افريقية الى سجلماسة، ودخلوا المغرب في سنة ٦١٠/١٢١٣ بعد العقاب[٢]. وهم مجموعة زناتية. ويبدو أنهم ادعوا نسباً عربياً بعد أن خلفوا الموحدين على حكم المغرب. وفي سنة ٦١٣/١٢١٦هزموا جيش فاس واسروا واليها[٣]. وفي أيام الفتن في زمن المأمون استطاعوا أن يحدّوا من تسلط عرب ريا «فعظم بنومرين في نظر أهل الغرب»[٤]، فسيطروا على البوادي[٥] ومن ثمّ تمهد طريقهم لخلافة الموحدين على حكم المغرب.

ولا ريب في أن موقف الموحدين المتشدد من بعض العناصر واضطهادها بدافع من نظرة الموحدين الدينية أمثال اتباع الفقه المالكي واهل الذمة يهوداً ونصارى، دفع هذه المجموعات للعمل على تقويض أركان الدولة الموحدية.

لقد عمل الموحدون للقضاء على الفقه المالكي بحرق كتبه[٦]، وامتحان المشتغلين بتدريسه[٧]. وعلى ضوء هذه المواقف نستطيع ان نفهم

= ٣٢٣، ٣٥٩، ٣٦٧ - ٣٦٨؛ العبر جـ٦ ص ٥٢٧ - ٥٢٨ - ٥٣٢ - ٥٣٤.

(١) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٥٠، ٣٦٤.

(٢) روض القرطاس ص ١٨١، ١٨٧.

(٣) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٤٤ - ٢٤٧؛ روض القرطاس ص ١٨١، ١٨٨: العبر جـ٦ ص ٥٢٤.

(٤) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٥٠.

(٥) روض القرطاس ص ١٦٣.

(٦) لمعجب ص ٢٧٨، ٢٨٠.

(٧) ابن شريفة: أبو المطرف ابن عميرة ص ٢٤ نقلاً عن مخطوط الذيل والتكملة لعبد الملك المراكشي.

ثورة القاضي عياض في سبتة. ويبدو أن الفقهاء المالكيين كانوا ينظرون للميورقيين وبخاصة في افريقية ورثة للمرابطين، وحماة للفقهاء والمذهب. فلا عجب أن يجد علي بن اسحاق الميورقي عندما فتح بجاية سنة ١١٨٤/٥٨٠ في أبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الازدي الاشبيلي خطيباً ذرباً، ومدافعاً صلباً، مما أحنق عليه المنصور[1]. لم تسعفنا المصادر بكثير عن تحركات الفقهاء المالكيين ضد الدولة الموحدية ولكننا لا نستبعد من هذه الاشارات اليسيرة ان يكون الفقهاء المالكية الذين لم يصبحوا جزءاً من الطبقة الحاكمة قد اسهموا في كل ما يقوض اركان الدولة الموحدية ويزلزل بنيانها.

وقد وقفت الدولة من اليهود والنصارى موقفاً محارباً، ولا عجب في ذلك، فالموحدون كفّروا إخوانهم المسلمين المنكرين لمهدية ابن تومرت، وأحلوا دمهم وسبيَ حريمهم واستباحةَ مالهم، فكيف بغير المؤمن بالاسلام أصلاً؟ فالمراكشي المعاصر لدولتهم يقول «ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة، ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة، وإنما اليهود عندنا يظهرون الاسلام ويصلون في المساجد ويقرئون أولادهم القرآن، جارين على ملتنا وسنتنا، والله اعلم بما تكن صدورهم وتحويه بيوتهم[2]». وكان المنصور شاكاً في إسلامهم غير متيقن من كفرهم، فميزهم في لبس فيه إهانة لهم عام ١١٩٨/٥٩٥، وتوسلوا لخلفه الناصر في تغييره وتعديله[3]. ولم تكن أعداد اليهود أو النصارى بقليلة، ولم تكن مراكزهم في الحياة بحقيرة، فاليهود كانوا تجار البلاد وبخاصة في فاس وعندهم المال الممدود[4]. و لا شك أن موقفاً متساهلاً قد اتخذ حيالهم ابتداء من فترة المأمون الذي استخدم الروم وبني لهم كنيسة في مراكش. ويبدو أن النصارى كانوا يعملون على دعم سياسة المأمون حتى ان تاجراً

---

(١) المعجب ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٢) المعجب ص ٣٠٥؛ وانظر نهاية الإرب ص ٢١٧.

(٣) المعجب ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥؛ البيان المغرب جـ٣ ص ٢٠٥.

(٤) الإستبصار ص ٢٠٢.

نصرانياً كان يتردد على بلاد جدميوة هو الذي سعى لاستمالة أبي عثمان سعيد بن زكريا الجدميوي المسيطر على بلاد تلك القبيلة لينضم للرشيد في سنة ١٢٣٤/٦٣١[1]، وكان هذا قبل ان يتحول الرشيد عن سياسة والده. وفي عام ١٢٣٢/٦٢٩ لما أغار يحي بن الناصر على مراكش في ايام المأمون قتل كثيراً من اليهود[2]. وربما كان هذا رد فعل للتساهل الذي افترضناه. ففي مساندتهم للسياسة التي انتهجها المأمون تحطيم لأسس الدولة الموحدية بتهديم الفكرة التي قامت عليها. وعلى الأقل كانت هذه العناصر ضد الدولة الموحدية وليست معها.

(هـ) تقلص اراضي الدولة في الأندلس وافريقية والمغرب:

فنتيجة لضعف السلطة المركزية، وتناحر عناصرها، اغتنمت المراكز البعيدة الفرصة وانفصلت، فخرجت الاندلس عن طاعة الموحدين وتبعتها افريقية، وتقلص نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى نفسه حتى سقطت عاصمتهم في يد المرينيين.

ففي فترة الانحلال ازداد ضغط الممالك المسيحية على الأراضي الأندلسية: أرغون من الشرق وقشتالة من الشمال والبرتغال من الغرب. وفشل الموحدون بعد العقاب في صدّ تلك الهجمات فتوفر جو ملائم للطامعين من أهل الأندلس للثورة على الموحدين، لا سيما وأن الأندلسيين قد اضطهدوا منذ أيام الناصر بتخطيط من وزيره بن جامع، فطردت عناصرهم من الجيش. هذا بالاضافة لما وفره انقسام السادة بني عبد المؤمن من مناخ صالح للثورة عليهم، وبخاصة مسلك عدد منهم من استعانة بالنصارى وتسليم الحصون إليهم، ومما زاد الطين بلة التجاء بعض السادة إلى النصارى و تنصرهم[3]. وكانت شرق الأندلس السباقة للانفصال كعادة اهلها فقام ابو عبد الله محمد بن هود بمرسية في رجب ١٢٢٨/٦٢٥

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٣.

(٢) روض القرطاس ص ١٦٩.

(٣) أمثال عبد الله البياسي وأخيه أبي زيد أنظر البيان المغرب جـ٣ ص ٢٥٠، ٢٧٠.

وحكم تحت شعار العباسيين[1] «للهجع العامة. . . . . بتقلد تلك الدعوة[2] وراسل العباسيين فاعترفوا بسلطانه[3]. وأحرز المأمون انتصاراً عليه[4]، ولما نكث موحدو مراكش بيعته اضطر لمغادرة الأندلس» فخلا الجو لابن هود وانتهز النصارى الفرصة[5]». وسيطر ابن هود على معظم الاندلس[6]. وخلع اهل الأندلس طاعة الموحدين «وقتلوهم في كلّ بلد منها وأجلوهم واستأصلوهم إلا من ستره الله منهم واخفاه في ذلك الوقت عنهم[7]». ودخلت الاندلس في دور طوائف ثالث فقام في ١٢٢٩/٦٢٦ زيان بن مردنيش على السيد أبي زيد البياسي وضبط بلده بلنسية[8]. وفي سنة ١٢٣٣/٦٣٠ ثار محمد بن يوسف بن الأحمر بأرجونة (Arojona) ونازع ابن هود على زعامة الاندلس فلما جاء عام ١٢٣٩/٦٣٦ إلا وقد سيطر على غرب الأندلس. وتفصيل أخبار الأندلس في هذه الفترة يبعدنا عن موضوعنا ويهمنا هنا منها امران:

اولاً: لم يعد الأندلسيون ينظرون لموحدي المغرب نظرة قيادة او انتظار نجدة، وتحولوا شطر تونس حيث القوة الموحدية الجديدة بقيادة المحفصيين. ولم يظفر الموحدون إلا بسيطرة اسمية قصيرة الأمد على إشبيلية في رمضان ١٢٣٨/٦٣٥ عقب مقتل ابن هود[9] وطاعة رمزية من بني الأحمر منذ عام ١٢٣٩/٦٣٦ حتى وفاة الرشيد سنة ١٢٤٢/٦٤٠ ثم تحول بنو الأحمر صوب الحفصيين[10]؟

---

(١) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٨؛ روض القرطاس ص ١٨٢.
(٢) اللمحة البدرية ص ٣١.
(٣) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.
(٤) نفس المصدر جـ٣ ص ٢٥٨ وما بعدها.
(٥) الإحاطة ص ٤٢٠.
(٦) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٦٤، ٢٦٩؛ روض القرطاس ص ١٦٧، ١٨٢.
(٧) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٦٩.
(٨) نفس المصدر جـ٣ ص ٢٧٠.
(٩) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٧؛ روض القرطاس ص ١٧١؛ العبر جـ٦ ص ٥٣٧.
(١٠) البيان المغرب جـ٣ ص ٦٤٣؛ العبر جـ٦ ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

ثانياً: اضطرت الأندلس لمجابهة النصارى منفردة، فابتلعوها ما عدا دولة بني نصر في غرناطة. فقد كان هم السعيد الموحدي أن يضمَّ افريقية، ولم يعر استغاثة اشبيلية التي أوشكت على السقوط فتركها ومصيرها وتوجه نحو تلسمان[1]. فالنصارى منذ عام ٦٣٣/١٢٣٦ تبينوا ضعف مسلمي الأندلس وعدم مقدرة افريقية او المغرب على نجدتهم بفاعلية ففي ذلك العام عزم ملك قشتالة على ارسال جيش إلى كل بلد لمحاصرته[2]. وملك النصارى في ٦٣٣/١٢٣٦ قرطبة[3]، وفي ٦٣٦/١٢٣٩ بلنسية وفي ٦٤٤/١٢٤٦ مرسية[4] وجيان[5]، وفي رمضان ٦٤٦/١٢٤٨ اشبيلية[6]. وهكذا سقطت حواضر الأندلس واحدة تلو الأخرى وفي مدة قصيرة جداً.

وانفصلت افريقية سنة ٦٢٧/١٢٣٠، وقد ساعد على قيام دولة الحفصيين بها بعدها عن الحضرة، ثم ان الصراع والثورات والفتن جعلت اهل المدن يتشوقون للاستقرار والأمن فوجدوه مع الحفصيين، وبخاصة ان لهم سابقةً وفضلاً في الدعوة وبناء الدولة الموحدية بالمغرب، وواتتهم الفرصة لما تنكر المأمون للدعوة المهدية وأزال رسومها، فجاء أبو زكريا بن أبي محمد عبد الواحد الحفصي الى تونس وسيطر عليها، واستقل بها، واتبع نظم الموحدين، وكتب للجهات يطلب البيعات[7]، وفي نفس العام فتح بجاية وقسنطينة[8] وفي سنة ٦٣٤/١٢٣٧ تسمى بالأمير وذكر اسمه في الخطبة[9]. وفي ٦٣٦/١٢٣٨ فتح الجزائر[10] وبدأت صلاته تتوثق بأهل شرق الأندلس وجاءته بيعاتهم[11] وفي ٦٣٨/١٢٤١ ولي عهده لابنه ابي

(١) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٨٥ - ٣٨٦.
(٢) الذخيرة السنية ص ١١٣.
(٣) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٢٣
(٤) العبر جـ٦ ص ٦٠٥.
(٥) روض القرطاس ص ١٨٣.
(٦) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٨٥.
(٧) ابن عذارى: البيان المغرب جـ٣ ص ٢٧٤ - ٢٧٦؛ الاحاطة جـ١ ص ٣٢٠ - ٣٣١، العبر جـ٦ ص ٥٣١ بينما تصور امره روايات الحفصيين انه كان والياً من قبل المأمون أنظر تاريخ الدولتين ص ٢٢ - ٢٤؛ المؤنس ص ١٣٢.
(٨) البيان المغرب جـ٢ ص ٢٧٦.
(٩) تاريخ الدولتين ص ٢٧؛ المؤنس ص ١٣٢.
(١٠) تاريخ الدولتين ص ٢٨؛ العبر جـ٦ ص ٥٩٧.
(١١) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٤٥، ٣٩٨؛ تاريخ الدولتين ص ٢٧ بينما يجعلها ابن خلدون =

يحـي زكريا[1]. ولما تولى السعيد الخلافة بايعت بعض الولايات المغربية مثل سبتة[2] وسجلماسة[3] ابا زكريا الحفصي. ولما شعر بنوايا السعيد للقضاء عليه سار نحو تلسمان واحتلها سنة ١٢٤٣/٦٤٠ وترك واليها ابا يحـي يغمراسن «ليكون سداً بين البلاد الافريقية والغربية»[4] ومن بعد ذلك بدأ نجمه في صعود، فتوالت عليه البيعات المغربية والأندلسية من مكنـاسة[5] والمـرية[6] واشبيليـة وغرنـاطة[7]. وأرسـل ولاتـه إلى سبتـة وإشبيلية[8]. وفشلت محاولة السعيد لاخضاعه قبل وصول السعيـد الى افريقية بمقتله في معركته مع أبي يحـي يغمراسن والى تلسمان في صفر ١٢٤٨/٦٤٦[9] ومن ثم بايعت تلمسان[10] الحفصيين ويبدو ان ابا زكريا اراد ان يضم المغرب فقد عزم على الحركة الى المغرب ولكنه توفي قبل ان يتم له ما اراد[11]. ويخلفه ابنه ابو عبد الله محمد[12] الذي تولى العهد بوفاة أخيه ابي يحـي عـام ١٢٤٨/٦٤٦[13] ويكرس استقـلال الحفصيين ويـرسخـه باعلان نفسه خليفة ويتلقب بالمستنصر لما وردت عليه بيعـة أمير مكـة والحجاز بسعي عبد الحق بن سبعين في ذي الحجة ١٢٥٣/٦٥٠[14].

وفي الوقت نفسه الذي انفصلت فيه الاندلس وافريقية بدأت أحوال

= ويتابعه ابن ابي دينار سنة ١٢٤٧/٦٣٥؛ العبر جـ٦ ص ٦٠١ - ٦٠٥؛ المؤنس ص ١٣٢.

(١) تاريخ الدولتين ص ٢٨.

(٢) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٥٩؛ العبر جـ٦ ص ٦١٤.

(٣) العبر جـ٦ ص ٦١٧.

(٤) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٦٠ - ٣٦٢؛ تاريخ الدولتين ص ٢٩؛ العبر جـ٦ ص ٦٠٧ - ٦١٠.

(٥) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٧٣؛ العبر جـ٦ ص ٥٤٠، ٦١٨ - ٦١٩.

(٦) العبر جـ٦ ص ٦٤٥.

(٧) نفس المصدر جـ٦ ص ٦١٦ - ٦١٧؛ المؤنس ص ١٣٣.

(٨) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٧٩.

(٩) نفس المصدر جـ٣ ص ٣٨٥ - ٣٨٨.

(١٠) العبر جـ٦ ص ٥٤١.

(١١) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٩٣ - ٣٩٤؛ الاحاطة جـ١ ص ٣٢١ - ٣٢٢.

(١٢) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٩٨؛ الاحاطة جـ١ ص ٣٢٢؛ تاريخ الدولتين ص ٣٢.

(١٣) تاريخ الدولتين ص ٣٠؛ العبر جـ٦ ص ٦٢٣.

(١٤) تاريخ الدولتين ص ٣٣ بينما في العبر جـ٦ ص ٦٣٤ والمؤنس ص ١٣٥ سنة ٦٥٧.

الخلفاء في المغرب تضطرب والولايات تستقل. فمنذ ولاية يوسف المستنصر بدأ نفوذ الخلفاء في المغرب ينحصر في المدن. ورويداً رويداً لم يعد لهم نفوذ على البوادي[١]. ومع نزاع يحيى بن الناصرمع المأمون اولاً وخلفه الرشيد ثانياً من ٦٢٦ الى ٦٣٣/١٢٢٩-١٢٣٦ بدأ استبداد الولاة بولاياتهم والخروج بها عن طاعة الدولة، ففي سنة ٦٢٩/١٢٣١ استبد السيد أبو موسى بسبتة، فلما حصره المأمون بايع أهلها ابن هود ثم أحد كبار التجار بها الحاج أبا العباس احمد بن محمد السيناشتي في ٦٣٠/١٢٣٢[٢] ولم تخضع بعد ذلك لنفوذ الخلافة الفعلي. وفي أثناء حصار المأمون لها يحاصر يحيى مراكش ويدخلها[٣]، ولا ينقذها إلا الرشيد بعد وفاة أبيه سنة ٦٣٠/١٢٣٢[٤]. ويدوم النزاع بين يحيى والرشيد حتى يضطر الرشيد للفرار من عاصمته ويسيطر عليها يحيى بين عامي ٦٣٢-٦٣٣/١٢٣٥-١٢٣٦ ثم يستردها الرشيد[٥]، وبعد أشهر يقتل يحيى على يد عرب المعقل في رمضان ٦٣٣/١٢٣٦.

ويعيد الرشيد بعد ذلك هيبة الدولة لفترة قصيرة، فيتنقل لفرض الأمن، وتنعم بعض أرجاء المغرب بالاستقرار، فتبايعه اشبيلية لفترة قصيرة في رمضان ٦٣٥/١٢٣٨[٦] وفي شوال تطيعه سبتة[٧]، وفي ٦٣٦/١٢٣٩ يبايعه محمد بن يوسف بن الأحمر[٨]. ويقضي الرشيد على ثورة في السوس[٩] ثم يعم الرخاء دولته[١٠]؛ ولكنه يفشل في السيطرة على بني مرين[١١].

(١) المنوني، محمد: «انحلال الامبراطورية الموحدية»، دعوة الحق ص ٥٧.
(٢) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٧٦؛ روض القرطاس ص ١٦٩ - ١٧٠.
(٣) روض القرطاس ص ١٦٩.
(٤) البيان المغرب جـ٣ ص ٢٨٢؛ روض القرطاس ص ١٧٠.
(٥) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩١، ٣٠٦ وما بعدها، ٣١٩، ٣٢٤.
(٦) نفس المصدر جـ٣ ص ٣٣٥ - ٣٣٧.
(٧) نفس المصدر جـ٣ ص ٣٤٠؛ روض القرطاس ص ١٧١.
(٨) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٤٣؛ العبر جـ٦ ص ٥٣٧.
(٩) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٤٣.
(١٠) نفس المصدر جـ٣ ص ٣٤٢، ٣٥٦.
(١١) نفس المصدر جـ٣ ص ٣٥٠ - ٣٥٤، العبر جـ٦ ص ٥٣٧.

ولما توفي الرشيد عام ١٢٤٢/٦٤٠ وبويع للسعيد عاد الاضطراب فتخلع سبتة بيعتها وتحولها إلى الحفصيين وكذلك سجلماسة[١]، ويظل أبو يحيى يغمراسن مستبداً بتلسمان. فكان على السعيد ان يواجه السيطرة المرينية على البوادي المغربية، واستبداد بني عبد الواد في تلسمان، واستقلال الحفصيين في تونس، وخروج بعض الولايات عن طاعته مثل سبتة وسجلماسة. فتحالف مع بنى عبد الواد على بني مرين. وخشى ابو زكريا الحفصي على استقلاله فتوجه في عام ١٢٤٣/٦٤٠ واحتل تلسمان وما تركها لواليها الا لتكون سداً بينه وبين المغرب، ولكن السعيد ينجح في إعادة سجلماسة لسلطته في ١٢٤٤/٦٤٢[٢]: بينما في ربيع ١٢٤٥/٦٤٣ تخرج مكناسة عنه وتبايع الحفصيين[٣] فيستردها في ذي الحجة ١٢٤٦/٦٤٣[٤]. وفي آخر ١٢٤٨/٦٤٥ يتحرك نحو افريقية لاستردادها، فيتحالف مع بني مرين، ويتصل ببني عبد الواد، ويطلب اجفانا من صقلية؛ عندها اصطدم بأبي يحيى يغمراسن فانهزم جيش السعيد ولقي هو حتفه في صفر ١٢٤٨/٦٤٦[٥]. وهكذا تنتهي آخر محاولة لاعادة وحدة الدولة في افريقية والمغرب من جانب موحدي مراكش ويخلف المرتضى السعيد الذي لم يستطع السيطرة على أميال خارج مراكش. وبفضل ميله للدعة والمسالمة ملك بنو مرين في ١٢٤٨/٦٤٦ رباط تازا[٦]، وفي رجب ١٢٤٩/٦٤٧ فاس[٧]، وفي سنة ١٢٥٥/٦٥٣ هزموا جيش المرتضى دون قتال عند بني بهلول، ثم لا يخرج المرتضى بعدها في معركة أبداً، ويشغل بممارسة هواياته[٨]. وفي ١٢٦١/٦٥٩ يهزم المرينيون جيش المرتضى عند

---

(١) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٦٠/٣٥٩.
(٢) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٦٥.
(٣) نفس المصدر جـ٣ ص ٣٧٣؛ العبر جـ٦ ص ٥٤٠.
(٤) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٧٩/٣٧٨؛ روض القرطاس ص ١٧١.
(٥) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٨٥ - ٣٨٨؛ العبر جـ٦ ص ٥٤١.
(٦) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٩٢ - ٣٩٤؛ العبر جـ٦ ص ٥٤٢.
(٧) نفس المصدرين جـ٣ ص ٣٩٩، جـ٦ ص ٥٤٢ على التوالي.
(٨) البيان المغرب جـ٣ ص ٤١٠ - ٤١٤؛ روض القرطاس ص ١٧٣؛ العبر جـ٦ ص ٥٤٣ - ٥٤٤.

أم الرجلين بجهات تامسنا، ويهددون العاصمة نفسها[1]، ثم يحصرونها عام ١٢٦٤/٦٦٢ ويدفعهم عنها بمال يدفع لهم كل عام[2]. وفي ١٢٥٦/٦٥٤ يستبد العزفي بسبتة وتنضم إليه طنجة في ١٢٦٤/٦٦٢[3] ويستبد علي بن يدر بالسوس ويهزم البعوث المتكررة عليه[4]. وفي ١٢٥٧/٦٥٥ يبايع والي سجلماسة ابو محمد عبد الله الجنفيسى المرينين ولكنه في ١٢٥٨/٦٥٦ يرجع للموحدين[5]. وتكون نهاية المرتضى عام ١٢٦٧/٦٦٥ على يد أحد القرابة متحالفا مع بني مرين. لقد فرَّ في محرم ١٢٦٤/٦٣٣ السيد ابو العلاء ادريس الملقب بأبي دبوس الى المرينين، مستنجداً بأبي يوسف المريني، فيمده بمال وطبول، ويعينه بعرب الخلط على أن يقاسمه الأموال والذخائر[6]، ونصف ما يملك من الأراضي[7]، ثم يكسب ابو ديوس تأييد هسكورة، فينضم اليه عرب سفيان وجابر والروم، ثم يدخل مراكش في محرم ١٢٦٧/٦٦٥ ويقتل المرتضى في صفر[8]. ووصلته بيعة ابي يحيى يغمراسن وأخضع السوس من علي بن يدر في ذي القعدة ١٢٦٧/٦٦٥[9]. فتوالت عليه بيعات العرب[10]، وبدأ وكأن الرجل قد نفخ الروح في الجسم الميت، ولكن بني مرين شنوا عليه الغارات وسقوه من الكأس التي سقى منها المرتضى، فهزم منسلخ سنة ١٢٦٩/٦٦٧ وقتل وحمل رأسه إلى فاس. وبايع الموحدون ابنه عبد الواحد لخمسة ايام، ثم فروا عن مراكش ودخلها المرينيون وكتبوا نهاية الموحدين بالمغرب[11]؟

---

(١) البيان المغرب جـ٣ ص٤٣٣ - ٤٣٤.
(٢) نفس المصدر جـ٣ ص ٤٤٠.
(٣) نفس المصدر جـ٣ ص ٤٤٠.
(٤) نفس المصدر جـ٣ ص٤٠٧، ٤١٥.
(٥) نفس المصدر جـ٣ ص ٤١٥ - ٤١٨.
(٦) روض القرطاس ص ١٧٤.
(٧) العبر جـ٦ ص ٥٤٧ - ٥٤٨.
(٨) البيان المغرب جـ٣ ص ٤٤٠ - ٤٥١.
(٩) نفس المصدر جـ٣ ص ٤٦٠ وما بعدها؛ العبر جـ٦ ص ٥٥٠.
(١٠) البيان المغرب جـ٣ ص٤٦٨ - ٤٦٩.
(١١) روض القرطاس ص ١٧٦؛ العبر جـ٦ ص ٥٥١.

(و) الخراب الاقتصادي:

ان اضطراب حبل الامن، وسيادة الفوضى، وتقلص الاراضي، كانت من اسباب الانهيار الاقتصادي المريع الذي رافق فترة الانحلال، فقلت موارد الدولة وشحت، فكانت الخزينة خاوية في أكثر الاحيان، وكان يحيى كثيراً ما يطلب المال من عرب الخلط وابن وقاريط(١). لقد منعت الفتن والثورات المجابي، كما اوقفت سيطرة العرب على البوادي الحراثة فيها(٢). ولا يستثنى من ذلك الا فترة الرشيد(٣)، الذي بذل كل جهد مستطاع بعد قضائه على فتنة يحيى بن الناصر، فعين ولاة أقوياء على المناطق التي كان عرب الخلط قد سيطروا عليها مثل بلاد صنهاجة وتاسقرت ودكالة ورجراجة، ففرض نوعا من الامن وتيسر له قدر من الجباية ولكن لأمدٍ قصير(٤).

ومنذ وفاة يوسف المستنصر كثرت المجاعات وغلت الاسعار(٥)، وتوقفت حركة العمران التي اشتهر بها الخلفاء الأربعة الأول، ودمرت المنشآت القديمة(٦)، وخربت مراكش في الفتن التي اجتاحت الخلافة لاسيما فترة النزاع بين يحيى بن الناصر والمأمون ثم الرشيد. وأصاب الخراب مكناسة فأصبحت أطلالاً(٧). وتهدم جامع حسان في الرباط وأراد السعيد أن يصنع بخشبه الاجفان(٨).

ورافق هذا الانهيار انحطاط في الحياة الفكرية، وعلى الرغم من أن الادب يزدهر في عصور المشادة فان الضعف السياسي والفتن والثورات جعلت مقام العلماء بالمغرب أمراً صعباً ومطلباً شاقاً، فاتجهوا نحو تونس،

(١) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٢٠.
(٢) الذخيرة السنية ص ٣٥.
(٣) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٥٣.
(٤) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٢٥، ٣٢٨ - ٣٣١.
(٥) نفس المصدر جـ٣ ص ٣٤٧ - ٣٤٨.
(٦) روض القرطاس ص ٢٩.
(٧) محمد المنوني «انحلال الامبراطورية الموحدية» دعوة الحق ص ٥٨.
(٨) الذخيرة السنية ص ٦٦.

لاسيما علماء الاندلس وأدباؤها مثل ابن الابار ورفقائه. ومن جاء المغرب لم يتيسر له البقاء فيه والاستقرار فواصل سيره نحو افريقية مثل ابن عميرة ومن لف لفه.

٣ ـ عوامله:

إن الضعف السياسي المتمثل في ضعف الخلفاء واستبداد الأشياخ، والتفكك الاداري المتجلي في تسلط الوزراء وتنفذ الموطفين وظهور تحكم الحريم واستبداد الولاة، والانهيار العسكري الذي جسده ضعف الجيش ونهاية الاسطول، وما رافق ذلك من فتن وثورات داخلية، وتقلص أراض، وانهيار اقتصادي، وذبول فكري، كل ذلك لا يعدو ان يكون مظاهر للانحلال ولا يفسر لم حدث الانحلال، فما هي العوامل التي بعثت بالدولة إلى الشيخوخة؟ ثم الفناء؟.

أشرنا في بداية هذا البحث الى التوسع السريع للدولة الموحدية وذكرنا حدودها التي ضمت منطقة شاسعة متعددة العناصر متنوعة المشاكل. ويصعب ربط أرجاء تلك الدولة بالمركز في مثل ذلك العصر. فهذا التوسع جعل الموحدين في صراع دائم مع القبائل العربية والثوار في افريقية والنصارى في الاندلس. ان هذا الصراع في جبهتين متباعدتين ارهق الدولة واربكها، فما ان تواجه الدولة الإحداث المضطربة في جبهة حتى تشتعل الجبهة الاخرى ولا يجد الموحدون مفراً من انتقال الجيوش إلى الجبهة الجديدة على بعد الشقة. فهل هذا التوسع هو سبب انحلال الدولة وتفككها؟

كثير من امبراطوريات العالم القديم والوسيط بدأت تعصف بها عوامل الانحلال مع توسعها العظيم، ولكن الموحدين في ظل خلفائهم عبد المؤمن ويوسف والمنصور واجهوا التوسع ومشاكله. وصحيح ان تلك الجهود قد أرهقت الدولة وشلّت حركتها في كثير من الاحيان، ولكن الفشل رافق مرحلة الانهيار السياسي والاداري والعسكري، ومن هنا يبقى

التوسع عاملاً من العوامل المساعدة وليست بالباعثة، فلولا ذلك الانهيار لقدر للموحدين الاحتفاظ بأراضيهم مدة أطول. وبخاصة ان الموحدين ضموا المناطق المفتوحة لسيادة دولتهم ولكنهم لم يستطعوا أن يدخلوا دولتهم ولكنهم لم يستطعوا ن يدخلوا الناس في فكرتهم. وبزوال الدولة زالت الفكرة. فهل الفكرة هي سر النجاح وضعفها هو سر الانحلال؟.

ان قيام الدولة وتوسعها هما نتاج التنظيم الدقيق في اجهزة الحزب ثم الدولة. وهذا التنظيم ما كان له أن ينجح لولا إيمان الاتباع الاول بالفكرة القائمة على التوحيد المرتكزة على المهدية الهادفة للتجديد. فأنتج هذا الايمان طاعة عمياء يسرت تنظيم الحزب فالجيش ثم الادارة. ويصف لنا المراكشي نوعية تلك الطاعة فيقول «ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد إلى أن بلغوا في ذلك إلى حدّ لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء»[1]. ولم يكن لهم من هدف في بداية أمرهم سوى تحقيق فكرتهم في واقع الحياة ونشرها في العالمين. فهل تبدلت هذه الغاية وتلك الروح؟.

لما نجح عبد المؤمن في الانتقال بالدعوة من الثورة إلى نظام الدولة رافق ذلك تبدل في مفهومه الاساسي، فنقل الدولة من دولة الفكرة الى دولة الوراثة يوم ولي ابنه محمداً عهده وعين أبناءه حكاماً على الولايات. والمفروض في دولة الفكرة ان تقدم على مؤسساتها من يؤمن بالفكرة ويلتزمها وتؤخر من يحيد عنها. ولكن دولة الوراثة لا تنظر إلا في تقديم من يثبت أقدامها، ولهذا استقدم عبد المؤمن قبيلته كومية متقوياً بهم وولاهم الوظائف في المركز والولايات، وقدمهم على كثير من الموحدين ذوي الفضل والسبق والايمان، ولم تكن كومية مؤمنة بافكار الدولة الاساسية بل خاضعة لسيادة الدولة، ولهذا فان كثيرا ممن قدم منهم كان يسعى لمصلحة نفسه غير عابيء بافكار لم يؤمن بها، فما ان تسنم عبد السلام الكومي منصب الوزراة حتى استولى على الناس جميعا فاضطر

---

(١) المعجب ص ١٩١.

الخليفة لنكبته خشية تذمر الموحدين[1]. وخير مثل على ما نقول هو محمد ابن علي الكومي والي حيان سنة ١١٥٩/٥٥٤ الذي داخله ابن مردنيش ووجد منه قبولاً ونكوصاً عن بيعة عبد مؤمن[2].

ان الدوفاع التي الجأت عبد المؤمن للاستعانة بقبيلة كومية هي ذاتها التي دفعته للاستعانة بالعناصر التي كانت تعمل في الدول التي ورثها، وذلك حتى يقوى من مركزه ويبسط من سلطانه على الاراضي الجديدة التي افتتحها، ووصل بعضها الى اعلى مستوى في الجهاز الاداري، ولكن كثيرا منهم ظل على هواه القديم، فهذا ابو جعفر ابن عطية صهر المرابطين وكاتبهم يدخل سلك الكتابة ويرتقى الى الوزارة وهواه مازال مع المرابطين المتجمعين في ميورقة الأمر الذي دفع عبد المؤمن لنكبته[3].

وفي سبيل استرضاء الجماعات الموحدية الأولى أصبح أحفادهم يتوارثون وظائفهم وامتيازاتهم كما توارث بنو عبد المؤمن الخلافة وامتيازاتها، لقد نال الأجداد مكانتهم بفضل سبقهم وفضلهم في الدولة ولكن لم يظل العمل او الاخلاص هما عاملي التقديم او التأخير بل أصبح العامل الوحيد هو نسب الفرد وبلاء اهله الماضين.

ومع تقادم الزمن ضعفت الفكرة في النفوس وذبل الايمان في القلوب فدب النزاع على المصالح الخاصة كما يصور ذلك خير تصوير النزاع على العرش واستبداد مراكز القوة المختلفة في الدولة. فمنذ عهد يوسف المستنصر تقدم على الأمر أناس لم يكن لهم دور في الدعوة أو الدولة[4]، وتكاثر عدد المرتزقة من عرب وروم وأغزاز، ويبدو أن الخلفاء انفسهم فقدوا الايمان بالفكرة فالمنصور يصرح بذلك لخاصته[5].| والمأمون يمحو آثارها ويزيل رسومها. ويبدو أن هذا التحول قد بدأ في أيام عبد المؤمن

---

(١) المن بالامامة ص ١٧٣ - ١٨١؛ روض القرطاس ص ١٣٠.

(٢) المن بالامامة ص ١١٥ - ١١٦؛ البيان المغرب جـ٣ ص ٤٠.

(٣) المعجب ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٤) روض القرطاس ص ١٦١.

(٥) المعجب ص ٢٩١ - ٢٩٢.

عندما غيرّ مفهوم التوحيد من ديني الى سياسي، ومع كر الايام حدث انفصام بين الفكرة والدولة، فتجسد ذلك عملياً في خلافة المستنصر، وقام على مرتكز نظري في عهد المأمون. وسارت الدولة بوحي الفكرة بفضل الدفعة الاولى التي أطلقها المهدي وحرص عبد المؤمن على رعايتها في اول عهده، فربى عبد المؤمن طلائعها وزودها بالعلم والمعرفة وحصنها بالتربية. ولا نعلم ان عبد المؤمن داوم على هذا النهج التربوي ولم تذكر المصادر ان خلفاءه ساروا على هذا النهج. ولا ريب في ان الفكر ان لم يداوم اصحابه عليه يتحجر ويغدو آفة عليهم. والمداومة على الفكر والتزامه من أشق الامورَ على النفس الانسانية، فان اعتبرنا سبب انحلال الدولة هو ذبول الفكرة فهذا يتلاءم والنفس الانسانية التي هي كل يوم في حال، ولا تصبر على أمر طال، فأزمة الموحدين هي ازمة الانسان ومصيرها كان مصير كل كائن حيّ ولادة ونمواً وزوالاً[1].

---

(١) بعد كتابة هذا البحث عن انحلال الدولة الموحدية ان السؤال «لم تذبل الفكرة» و«لم لا يدوم الالتزام بها»؟ لابد ان يظل قائماً؟ وهنا بدا لي ان القضية الفكرية لا يمكن ان تفصل عن البيئة الاجتماعية والاقتصادية. ولهذا قمت ببحث عن النشاط الاقتصادي في المغرب خلال القرن السادس/ الثاني عشر حتى نستطيع ان نفهم الجذور الاقتصادية والاجتماعية للاوضاع السياسية والفكرية في ذلك القرن.

ثبتُ المصَادِر وَالدّراسَات

أ ـ المصادر :

١ ـ ابن الابار، ابو عبد الله محمد بن عبد الله؛ التكملة لكتاب الصلة، ٢ ج، تحقيق عزت العطار الحسيني، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦.

٢ ـ ابن ابي دينار، ابو عبد الله محمد بن ابي القاسم الرعيني؛ المؤنس في اخبار افريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس، المكتبة العتيقة، ١٣٨٧ هـ.

٣ ـ ابن ابي زرع الفاسي، ابو الحسن على بن عبد الله؛ الانيس المطرب، روض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، باعتناء كارل يوجن تورنبرغ، اوبسالة، ١٨٤٣ ـ ١٨٤٦م.

٤ ـ ابن الاثير: عز الدين ابو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني؛ الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر ودار بيروت، ١٣٨٦/١٩٦٧. في الفصل الاول عن الصلات بين المشرق والمغرب اعتمدنا طبعة ليدن ١٨٥١ ـ ١٨٧٤.

٥ ـ ابن بطوطة؛ تحفة النظار في عجائب الامصار، ٢ ج، القاهرة، ١٩٥٨.

٦ ـ ابن جبير، ابو الحسن محمد بن احمد؛ رحلة ابن جبير، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٤ م.

٧ ـ ابن الحاج النميري، ابراهيم؛ فيض العباب؛ مخطوط الخزانة الملكية، الرباط، رقم ٣٢٦٧.

٨ ـ ابن الخطيب، لسان الدين ابن عبد الله محمد بن عبد الله التلمساني؛ الاحاطة في اخبار غرناطة، المجلد الاول، تحقيق محمد عبد الله عنان، دار المعارف المصرية بمصر ـ وفي رأس العنوان ذخائر العرب (١٧).

٩ ـ . . . . ، أعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام؛ تحقيق أ. ليفى روفنسال، بيروت، دار المكشوف، ١٩٥٦ م.

١٠ ـ . . . . ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية؛ تصحيح محب الدين الخطيب، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٤٧ هـ.

١١ ـ . . . . ، نفاضة الجراب؛ مخطوط الاسكوريال، رقم ٢٧.

١٢ ـ ابن خلدون، ابو زيد عبد الرحمن بن محمد؛ العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام الحرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان. الاكبر، ٧ ج. طبعة بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦ ـ ١٩٥٩. واعتمدنا طبعة القاهرة، بولاق، ١٣٨٤ هـ في الفصل الاول: الصلات بين المشرق والمغرب.

١٣ ـ ابن خلكان، شمس الدين ابو العباس احمد؛ وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، ٦ ج، تحرير محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩.

١٤ ـ ابن صاحب الصلاة، ابو مروان عبد الملك محمد بن احمد الباجي الاشبيلي؛ تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بان جعلهم الله ائمة وجعلهم الوارثين، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، دار الاندلس، ١٣٨٣/١٩٦٤.

١٥ ـ ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، ٤ ج، بيروت، دار الثقافة، الطبعة الاولى، ١٩٦٧ م. جـ ١ ـ ٣ تحقيق لولان وليفى بروفنسال. اما الجزء الرابع فهو تحقيق احسان عباس. أيضاً البيان المغرب الجزء الثالث تحقيق امبروس هويسى ميراندا ومشاركة محمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتاني، تطوان، ١٩٦٠ م.

١٦ ـ ابن القطان الكتامي، ابو علي او محمد الحسن او الحسين بن علي، جزء من كتاب نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي، تطوان، المطبعة المهدية، لا. ت.

١٧ ـ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم؛ مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، ٣ ج، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، المطبعة الاميرية، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧ م.

١٨ ـ ابو شامة المقدسي، ابو القاسم عبد الرحمن بن اسماعيل؛ الروضتين في اخبار الدولتين، ٢ ج، القاهرة، مطبعة وادي النيل، ١٢٨٧ ـ ١٢٨٨ هـ.

١٩ ـ الادريسي، ابو عبد الله محمد بن محمد؛ وصف افريقية الشمالية والصحراوية، مأخوذ من نزهة المشتاق، نشرهـ. بيريس، الجزائر، معهد الدروس العليا الاسلامية، ١٩٥٧.

٢٠ ـ البيذق، ابو بكر الصنهاجي؛ المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين، تحقيق

أ. لا في بروفنسال، باريز، ١٩٢٨م.
٢١ ـ التيجاني، ابو محمد عبد الله بن محمد بن احمد، رحلة التيجاني، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس، المطبعة الرسمية، ١٩٥٨م.
٢٢ ـ الحميري؛ صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار، باعتناء ليفى بروفنسال، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧.
٢٣ ـ الزركشي، ابو عبد الله محمد بن ابراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس، المكتبة العتيقة، ١٩٦٦م.
٢٤ ـ عبد الواحد المراكشي، ابو محمد-ابن علي؛ المعجب في تلخيص اخبار المغرب، ضبطه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٤٩م.
٢٥ ـ العماد الاصفهاني، عماد الدين محمد بن يحيى؛ الفتح القسى في الفتح القدسي، ٢ ج، تحقيق كارلو لاندربرغ، ليدن، ١٨٨٧م.
٢٦ ـ القلقشندي، شهاب الدين ابو العباس احمد بن علي؛ صبح الاعشي في كتابة الانشا، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩١٣ ـ ١٩١٩م.
٢٧ ـ مجموع اربع رسائل موحدية من انشاء كتاب الدولة المؤمنية، باعتناء ليفى بروفنسال، رباط الفتح المطبعة الاقتصادية، ١٩٤١م.
٢٨ ـ مجهول؛ الاستبصار في عجائب الامصار، نشر وتحقيق سعد زغلول الحميد، الاسكندرية، مطبعة جامعة الاسكندرية، ١٩٥٨م.
٢٩ ـ ....؛ الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، تحقيق علوش، الرباط، ١٩٣٦م.
٣٠ ـ ....؛ الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الجزائر، ١٩٢٠م.
٣١ ـ ....؛ نبذ تاريخية في اخبار البربر في القرون الوسطى منتخبة من كتاب مفاخر البربر: باعتناء. لا في بروفنسال، رباط الفتح، المطبعة الجديدة، ١٩٣٤/١٣٥٢.
٣٢ ـ ....؛ مخطوط منطق الطير، الخزانة الملكية، الرباط، رقم ١٩١٠.
٣٣ ـ المقرى التلمساني، ابو العباس احمد بن محمد؛ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، ٨ ج، تحقيق احسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨م.
٣٤ ـ المقريزي، ابو العباس احمد بن علي؛ السلوك لمعرفة دولة الملوك، ٢ ج، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٤ ـ ١٩٤٢م.
٣٥ ـ النويري، ابو العباس احمد بن عبد الوهاب البكري؛ نهاية الارب، (القسم

التاريخي)، طبعة جسبار ريميرو، غرانادا، ١٩١٩م.

ب ـ الدراسات:

٣٦ ـ اشباخ، يوسف؛ تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٣٧٧/١٩٥٨.
٣٧ ـ ابن شريفة، محمد؛ ابو المطرف احمد بن عميرة المخزومي حياتة وآثاره، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٣٨٥/١٩٦٦.
٣٨ ـ حركات، ابراهيم؛ المغرب عبر التاريخ، المجلد الاول، الطبعة الاولى، الدار البيضاء، دار السلمي، ١٣٨٤/١٩٦٥.
٣٩ ـ حتى، فيليب ورفيقاه؛ تاريخ العرب (مطول)، ٣ ج، دار الكشاف، ١٩٥١م.
٤٠ ـ الصحراوي، عبد القادر؛ جولات في تاريخ المغرب، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٦١م.
٤١ ـ عباس، احسان؛ تاريخ ليبيا من الفتح العربي حتى القرن التاسع الهجري، بيروت، ١٩٦٧م.
٤٢ ـ عبد الحميد، سعد زغلول؛ «العلاقة بين صلاح الدين الايوبي وابي يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي»، مجلة كلية الاداب، جامعة الاسكندرية، م. ٦ ـ ٧، ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣م.
٤٣ ـ عنان، محمد عبد الله؛ عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس، ٢ ج، القاهرة، ١٩٦٤م.
٤٤ ـ كنون، عبد الله؛ النبوغ المغربي في الادب العربي، الطبعة الثانية بيروت، المكتبة المدرسية ودار الكتاب اللبناني، ١٩٦١.
٤٥ ـ لويس، ارشيبالد؛ القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠ ـ ١١٠٠م). ترجمة احمد محمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠م.
٤٦ ـ المنونى، محمد؛ العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين، تطوان، المطبعة المهدية، ١٣٦٩/١٩٥٠.
٤٧ ـ ....؛ «الامبراطورية الموحدية في طور الانحلال»، دعوة الحق، الرباط، العدد الثاني، السنة الثامنة، شعبان ١٣٨٤/دجنبر ١٩٦٤.
٤٨ ـ الناصري السلاوي، ابو العباس احمد بن خالد؛ الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصرى، الدار البيضاء، ١٩٥٤م.

من كتب دار الشروق الإسلامية

مصحف الشروق المفسر الميسر
مختصر تفسير الإمام الطبري
تحفة المصاحف وقمة التفاسير
في أحجام مختلفة وطبعات منفصلة لبعض الأجزاء

تفسير القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الإسلام عقيدة وشريعة
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الفتاوى
الإمام الأكبر محمود شلتوت

من توجيهات الإسلام
الإمام الأكبر محمود شلتوت

إلى القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الوصايا العشر
الإمام الأكبر محمود شلتوت

المسلم في عالم الاقتصاد
الأستاذ مالك بن نبي

أنبياء الله
الأستاذ أحمد بهجت

نبي الإنسانية
الأستاذ أحمد حسين

ربانية لا رهبانية
أبو الحسن علي الحسيني الندوي

الحجة في القراءات السبع
تحقيق وتقديم الدكتور عبد العال سالم مكرم

الفكر الإسلامي بين العقل والوحي
الدكتور عبد العال سالم مكرم

على مشارف القرن الخامس عشر الهجري
الأستاذ ابراهيم بن علي الوزير

الرسالة الخالدة
الأستاذ عبد الرحمن عزام

محمد رسولاً نبياً
الأستاذ عبد الرزاق نوفل

مسلمون بلا مشاكل
الأستاذ عبد الرزاق نوفل

الإسلام في مفترق الطرق
الدكتور أحمد عروة

العقوبة في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

موقف الشريعة من نظرية الدفاع الاجتماعي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الجرائم في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

مدخل الفقه الجنائي الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

القصاص في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الدية في الشريعة الإسلامية
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الإسراء والمعراج
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

القضاء والقدر
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

قضايا إسلامية
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

التعبير الفني في القرآن
الدكتور بكري الشيخ أمين

أدب الحديث النبوي
الدكتور بكري الشيخ أمين

الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

اليهود في القرآن
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

أيام الله
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

مسلمون وكفى
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

الدعوة الوهابية
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

قال الأولون ـ أدب ودين
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

قل يا رب
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

الإيمان الحق
المستشار علي جريشة

الجديد حول أسماء الله الحسنى
الأستاذ عبد المغني سعيد

الجائز والممنوع في الصيام
الدكتور عبد العظيم المطعني

مناسك الحج والعمرة في ضوء المذاهب الأربعة
الدكتور عبد العظيم المطعني

أيها الولد المحب
الإمام الغزالي

الأدب في الدين
الإمام الغزالي

شرح الوصايا العشر
للإمام حسن البنا

القرآن والسلطان
الأستاذ فهمي هويدي

خفايا الإسراء والمعراج
الأستاذ مصطفى الكيك

الخطابة وإعداد الخطيب
الدكتور عبد الجليل شلبي

تأريخ القرآن
الأستاذ إبراهيم الأبياري

الإسلام والمبادئ المستوردة
الدكتور عبد المنعم النمر

سلسلة أعلام الإسلام ١٦/١

سلسلة أهل البيت ٦/١

إسهام علماء المسلمين في الرياضيات
تأليف الدكتور علي عبد الله الدفّاع
تعريب وتعليق الدكتور جلال شوقي
مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد

الخبر الواحد في السنة والتراث وأثره في الفقه الإسلامي
الدكتورة سهير رشاد مهنا

الأديان القديمة في الشرق
دكتور رؤوف شلبي



مطابع الشروق

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN





